حكايات بنــات
من زمن فــات

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: بورتريه التقنية: جواش عل ورق

المقاس: ١٩ × ٢٨ سم

رسمت خصيصاً للغلاف

هبة عنايت

تخرج الفنان فى كلية الفنون الجميلة عام ١٩٥٣، حصل على منحة دراسية بالصين لمدة خمس سنوات عام ١٩٥٦. عمل رساماً فى الصحافة وهو حالياً المستشار الفنى لمؤسسة روزاليوسف. حاصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى.

له مقتنيات فى مصر والسودان والعالم العربى وأوروبا. كما أقام العديد من المعارض الفردية والجماعية، بالإضافة إلى كتاباته التشكيلية والأدبية التى تعد بمثابة لوحات فنية عالية المستوى.

محمود الهندى

حكايات بنات

من زمن فات

زينب صادق



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

حكايات بنات
من زمن فات
زينب صادق

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : **محمود الهندى**

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

لا أحب كتابة المقدمات، أعتقد أن الكتاب بيان من عنوانه.. فهل أكتب مثلاً عن ظروف جيل فات.. النفسية والاجتماعية والسياسية؟!.. كلها ظهرت فى القصص. هل أكتب عن الفرق بين تفكيروتصرفات بنات زمان وتفكير بنات هذه الأيام؟! أيضاً ظهرت فى القصص.. وجدت أن ما أكتبه ملخصاً للقصص وهذا شىء غير مستحب.. حاولت كتابة مقدمة فوجدت هذا الشىء غير المستحب.. فلا داعى لها..

زينب صادق

حكايات بنات من زمن فات

١- مقهورة.
٢- مكبوتة.
٣- موهومة.
٤- مكافحة.
٥- حالمة.
٦- صديقتان.
٧- الوّد بين قلبين.
٨- يوم رومانتيكى.
٩- الكبار ليس لهم أمهات.
١٠- رائحة الربيع.
١١- تلك الليلة.



مقهـــورة

بكت أمى يوم ولادتى.. دموعها نزلت على وجهى لسعتنى، قالت أمى إننى نظرت إليها وإنفرجت شفتاى عن ابتسامة وتعجبت من ابتسامة طفلة يوم مولدها! وكانت تحكى عن هذه المعجزة لكل من يأتى لتهنئتها على البنت ثم يصدم.

قالت أمى إننى كنت طفلة غير مزعجة، قليلة البكاء، كثيرة الابتسام، نادرة الأمراض، وتلك المميزات جعلت إخوتى الثلاثة الكبار - يحبوننى ويلاعبوننى. كانت أمى حريصة على أن ألعب بلعب البنات ولا ألعب بلعب الصبيان أو ألعب معهم. كانت تخاف أن أقلدهم فى خشونتهم.

كانت حريصة أن تجعل منى أنثى فى تصرفاتى وحديثى وعلمتنى طهى الطعام وأنا فى التاسعة من عمرى. فى ذلك الزمان كان معروفاً

أن البنت الجميلة هى التى تتزوج، أما الخالية من الجمال فكانت تحاكى الشبان فى تصرفاتهم وحياتهم وتهتم بالمذاكرة لتصل إلى أعلى درجات العلم وتعمل ونادراً ما تتزوج! فالحقتنى بالدراسة فى مدرسة لبنات الأسر الراقية فى ذلك الزمان. يتعلمن بجانب العلوم والآداب الأعمال المنزلية والطهى والحياكة. وكانت الدراسة بمصاريف مرتفعة حسب اقتصاد ذلك الزمان. وكانت أمى تخاف من سخرية البنات منى، والحقيقة أنا لم أجد أننى لست جميلة، وكانت ابتسامتى تضىء وجهى، وتحبب البنات فىّ، وكذلك مرحى وخفة دمى. كانت أمى لا تعترف بجمال البنت إلا فى وجهها. ربما لم تلاحظ أن الله وهبنى الجمال فى بدنى. هذا الجمال لاحظته زميلاتى فى الدراسة، والشبان فى الطريق ولولا خوف شبان الحى الذى نسكنه من إخوتى الكبار لكانوا غازلونى علناً.. لقد تجرأ أحدهم يوماً ووضع فى يدى ورقة بها أبيات من الشعر يتغزل فىّ، كنا وقتها أثناء الاعتداء الثلاثى على مصر عام ٥٦. وكنت ممتلئة بالحماس للدفاع عن بلدى وانضممت لمسيرة من بنات وأبناء مدارس الحى لنعرض استعدادنا للدفاع عن أرض الوطن. أثناء مسيرتنا وجدت ورقة شعر الغزل فى يدى. لم يبتعد العاشق الولهان عن جو الحرب فكتب ضمن غزله..

«وخصرها صاروخ.. يعلوه مدفعان».. يومها تشاجرت أمى لأنى سرت فى مظاهرة مثل الشبان.. وزاد خوفها ألا أتزوج وقد وصلت إلى عمر السادسة عشرة، استمعت إلى نصائح النساء من القريبات وأخذتنى إلى حى شعبى فى بيت قديم لتعرضنى على شيخة معروفة ببركاتها

فى تزويج البنات، هكذا فهمت وأنا جالسة فى ذلك الجو الكئيب. قالت الشيخة بعد أن نظرت إلىّ إنه يلزمنى «عمل» يجعل الشبان يتنافسون على الزواج منى.. وذلك العمل سيتكلف بعض المال وبعض الوقت.. لأنها ستصنعه من العضو التناسلى لكلبة فى فترة طلب العشار. ظنت أمى إننى لم أفهم مع أنها وضعتنى فى مجال دراسى وبنات يفهمن فى أمور الحب والجنس أكثر من الذى فى كتب الدراسة! ربما لأول مرة أغضب من أمى وبكيت عندما عدنا إلى البيت وسألتها: هل أنا فى نظرك كلبة تريدين من الكلاب أن يحوموا حولى لاختار كلباً أتزوجه؟!.. شهقت أمى من المفاجأة وصفعتنى لأول مرة فى حياتى.. وحذرتنى أن أحكى عن هذه الزيارة أو هذا «العمل» لأى أحد.. ثم صالحتنى واقنعتنى أن أضع ذلك الشيء لأجل خاطرها. وبكت من خوفها ألا أتزوج وأصبح عانساً كبيرة يهرب منى الرجال لقبحى.. وتهرب النساء تشاؤما منى، ولا أجد لى سندا فى الحياة بعدها.. كنت واثقة من نفسى فلم تخفنى تحذيراتها.. ولم يكن ذلك الشيء سببا فى زواجى.. أقنعت أمى أننى أعلقه فى ملابسى الداخلية وكنت أضعه فى درج دولابى.

لقد كنت فى العمر الذى يلتفت فيه الشبان للشابات طلباً للزواج، وتقدم لى أكثر من شاب من عائلتنا ومن الجيران ومن اصدقاء إخوتى.. وكانت سعادة أمى أننى أنا التى كنت أتدلل وأرفض وأنتقى، كنت فاهمة نفسى، ماذا أريد ومن أريد، كان بدنى الفائر بالأنوثة هو الذى يوجهنى، وهو الذى كان يجذب الشباب لطلبى للزواج، وليس كما

ظنت أمي أن إقبالهم على من «سحر عضو الكلبة»، واخترت زوجي بصيحة شعرت بها من بدني، وفهمت فيما بعد أنه مولود تحت برج من أكثر الأبراج الفلكية حباً للجنس.

فى ذلك الوقت كان عمرى سبعة عشر عاماً، وفى السنة النهائية من مدرسة البنات وقالت حكومة الثورة إنه ممكن أن نعمل معادلة بسيطة ونلتحق بالجامعة، وكان غير مسموح بالدراسة الجامعية من تلك المدرسة، قلت رغبتى فى الالتحاق بالجامعة، واعترض خطيبى، كان مرشحاً لبعثة دراسية فى الخارج، وكان لابد أن أسافر معه، وافقت بصيحة من بدنى.. وفرحت لفكرة السفر للخارج، من التى كانت تحلم فى ذلك الوقت بالسفر للخارج، كان حلما مستحيلا، أتممت دراستى المعادلة للثانوية العامة وتزوجنا.. سافرنا إلى الإسكندرية وقضينا شهر عسل جميلاً فى شقة أسرته هناك. بعد ذلك عشنا معهم إلى أن أتى موعد سفرنا. على الرغم من أن لديه شقيقتين وشقيقين إلا أنه كان الأمر الناهى فى البيت. طلب من أمه أن تعلمنى طهى الطعام الذى يفضله وتدربنى على العادات التى يحبها وتحفظنى مطالبه. فى بيت أسرته كنت أعمل بمساعدة الاختين والأم. أما فى الخارج فكنت أقوم بالعمل المنزلى وحدى. كنت خادمة طوال اليوم فى البيت ليعيش كما كان فى بلدنا تماماً. وخادمة فى الفراش فى الليل. كان خروجنا نادراً للنزهة أو الفرجة على البلد. عندما حملت فى ابنتى الأولى هناك، أصر على أن أضع فى بلدنا خوفا أن يكون المولود ذكراً وتكتب شهادة ميلاده هناك، ويطلب فى جيشهم عندما يكبر، خاف أن يحارب وطنه مع ابناء ذلك الوطن، كنا فى وقت اضطرابات سياسية، بعد ولادة البنت

عدت إليه، وقرر أن يأخذ حذره حتى لا أحمل مرة أخرى ونحن فى الخارج لنوفر مصاريفنا.

همست لأمى بشكواى، فخبطت على صدرها وقالت: أتشكين من شيء تتمناه كل النساء؟ وأنت هل كنت تحلمين برجل يطلبك كل ليلة؟! حذرتنى من الشكوى ومن التذمر أو التمرد ومن التفكير، مجرد التفكير فى ترك الزوج! لم أكره ما شكوت منه لأمى، لكنى كنت أكره أنه أصبح شيئا روتينيا مثل الأشياء الروتينية التى يجب أن نقوم بها كل يوم، مثل تناول الطعام والدخول إلى الحمام.

أحياناً أكون متعبة أو.. غير راغبة لكنه كان يخضعنى لرغبته، والغريب أننى فى أوقات الامتناع الشهرى أو أثناء شهور الحمل الخطرة كنت أشتاق له.. أليس بدنى هو الذى اختاره؟

فى أول زواجى كان خضوعى للزوج إجباريا، كنت صغيرة، ومع مرور السنين وجدت أن خضوعى له اختيارى. وجدت أننى مقهورة باختيارى! ربما بدون أن أدرى علمت بناتى الثلاث عدم الخضوع ومقاومة القهر.. أى قهر يقع عليهن.. أخذن منى جمال البدن وأخذن من أبيهن جمال الوجه وتدربن على الذكاء بالقراءة والعلم، واخترن أزواجهن بتفكير عقولهن، ونبضات قلوبهن لم يخترن بصيحات أبدانهن.. فهل علمتهن هذا أيضاً دون أن أدرى؟!

عندما حدثنى زوجى عن هذه الحبوب الجديدة المنشطة للرجال، قلت له إننا كبرنا الآن ولسنا فى حاجة إلى نشاط الشباب وقد استمتعنا بحياتنا.

سألنى بجدية يعنى أنا لست متضايقة لأنه يطلبنى كل أسبوعين أو كل شهر؟!! كدت أبكى.. وكدت أضحك. وكدت أقول له حقيقة مشاعرى منذ السنة الثانية لزواجنا.. لكنى ابتسمت وربت على ظهره وقلت له إنه أحسن الرجال.

مكبوتة

الحياة كما ينبغى ان تكون.. إعلان.. يستفزنى كلما رأيته، يضحكنى، يهزنى، يذكرنى بعبارة مشابهة.. الحب كما ينبغى ان يكون.. أو.. كما كان ينبغى ان يكون!

صورته منورة فى الصفحة قبل الأخيرة فى الجريدة يطلبون قراءة الفاتحة!! لعنة الله عليه.. أطلت أختى برأسها فى الجريدة. قالت.. سامحيه.. أسامحه ؟!..

إذا كانت الإساءة محدودة.. إذا كانت لشئ بسيط لقد أساء لحياتى كلها.. الغضب منه انتهى من نفسيِ من زمن بعيد، لكن حياتى غاضبة عليه. ياأختى أنت كنت طفلة، بينما أنا كنت فى عمر الصبا عندما أحببته، أنت كنت فى بداية عمر الشباب. متفتحة للأمال التى تنتظرك بينما أنا كنت فى بداية نضج الشباب عندما صدمت أمالى بصخرة

اليأس فحطمتها. اضطربت حياتى. تلطم قلبى وفقدت الثقة فى نفسى.. أسامحه؟!.. لم أعش حياتى كما ينبغى أن تكون. وفهمت الحب كما ينبغى أن يكون بعد أن ضاعت كل الفرص من عمرى!!.

* * *

فى عمر الصبا تعرفت على أخته فى المدرسة الابتدائية. دعتنى لألعب معها فى حديقة بيتهم. فيللا تحوطها حديقة كبيرة فى شارع قريب من بيتنا. لا أنسى أول مرة شاهدته. شاب فى بداية عمر الشباب. الشقاوة تضئ عينيه العسليتين، تبرقان مثل عينى قطة قدمتنى له أخته. سألنى أين نسكن. ماذا يعمل أبى وهل لى إخوة وأخوات؟! لم أتضايق من أسئلته كما تضايقت أخته. كان شديد الشبه بأحد نجوم هوليوود فى الأربعينيات، وكنت معجبة بذلك النجم بعد أن شاهدته فى فيلم رومانسى مع أسرتى فى سينما صيفية بأحلام عمر الصبا تخيلت نفسى بطلة الفيلم الرومانسى وهو بطل أحلامى. كانت تلك المقابلة وأنا فى الثانية عشرة من عمرى وهو فى الثامنة عشرة من عمره، وأحببته، فهل كان يمكن لشاب فى مثل شقاوته وشكله ان يحب بنتا نحيفة شعرها مشدود خلف رأسها فى ضفيرة وثمرتان دقيقتان لم تنضجا على صدرها؟!. كان لا يمكن. كنت أسمع من أخى الذى يكبرنى عن منافسة أولاد حينا مع أولاد الحى المجاور فى لعبة كرة القدم وشقاوتهم فى تسلق أشجار الثمار الناضجة فى حدائق بيوت الحى، ووطنيتهم فى معاكسة جنود الأحتلال الإنجليزى، ومغامراتهم العاطفية مع بنات الأسر اليونانية. عندما سألته عن شقيق صديقتى قال إنه يشاركهم

العابهم وهو المفضل عند البنات اليونانيات أصبح فى رأسى الحلم الذى اتمنى تحقيقه. كانت تشجعنى ابتسامته التى يستقبلنى بها عند زيارتى لأخته، وحكاياته الظريفة التى كان يحكيها لنا.. كانت الفيللا التى يسكناها ملكا لجدهما الذى كان يعيش معهما. عندما توفى الجد قرر أبناؤه السبعة بيع البيت والحديقة فليس معقولا أن يستفيد بهما واحد فقط منهم. أختار والدهما سكنا بعيدا، وكنت وأخته فى السنة النهائية للدراسة الابتدائية. بكينا لفراقنا وبكيت أكثر لفراقه هو.. اتفقت معها على أن تظل صداقتنا بالمراسلة إلى ان يشاء القدر ونلتقى!.. كان الحى الذى اختاره والدها فى شمال العاصمة بينما حينا فى جنوبها. لكننا شعرنا فى ذلك الوقت وتبعا لحياة ومواصلات ذلك الزمن أن أميالا كثيرة تفصلنا!! ظلت الخطابات بيننا متبادلة طوال دراستنا فى المرحلة الثانوية، وتبادلنا أربع زيارات، لكنى لم التق به حتى بالصدفة طوال تلك السنوات . فى أخر زيارة سألتها عنه فقالت إن والدها اشترى له سيارة يسرح بها مع بنات خليعات!.. ومع ذلك بقى فى رأسى الحلم الذى تمنيت تحقيقه. وأخيرا قابلته وأنا أقدم أوراقى لالتحق بالجامعة، كان مع أخته، وهى تقدم أوراقها. كنت قد تغيرت. امتلأ بدنى وطالت قامتى ونضجت الثمرتان على صدرى وقصصت شعرى نظر إلى بدهشة.. معقول البنت الصغيرة كبرت هكذا؟!.. دعانا يومها لتناول المرطبات فى جزيرة الشاى بحديقة الحيوانات كانت كلماته مرحبة بى، ونظراته معجبة بى، وأه من فرحتى إنه شعر بوجودى!..

بدأت حكاية حبنا فى ذلك اليوم من أواخر سنوات الخمسينيات فى هذا القرن العشرين أقول حبنا بمعنى انه بادلنى الحب الذى كنت أكنه

له من سنين. التحقت بكلية التجارة التى تخرج هو منها والتحقت أخته بكلية العلوم، وكان هو يعمل فى شركة حكومية.. كانت مقابلاتنا أولا فى صحبة أخته، ثم أصبحت وحدنا وأعطانى أرقام تليفونات عمله حتى لا أطلبه فى بيت أهله!. شهدت مناطق العشاق فى ذلك الوقت صحبتنا شهدت سيارته الصغيرة تشابك أيدينا ونعومة قبلاتنا وسمعت مقاعد ومناضد كازينوهات النيل النائية حلوأحاديثنا، وسخاء أمالنا.. وأنا وحبيبى يانيل نلنا أمانينا.. مطرح مايرسى الهوى.. ترسى مراسينا ،.. هكذا غننت لنا أم كلثوم. طلب منى أن يكون الحب الذى بيننا سرا. لا احكيه لاحد مهما كان قريبا منى البنت فى عمر تفتح الشباب تزيد فرحتها بنبض الحب فى قلبها عندما تحكيه تشعر بثقة فى نفسها تقدرها. حرمنى من ذلك الشعور. واعتقدت أن الحب لابد أن يكون سرا، وقلقا، وخوفا.. كانت أخته تشعر بما يدور بيننا، وكانت تلمح لى بحكايات عن مغامراته العاطفية وأن والديها يريدانه أن يتزوج، ولن يجد أحسن منى وكانت حمرة الكبت تجيب عنى . صادقت زملائى فى حدود الدراسة والحفلات الثقافية التى كنا نقيمها والرحلات المرحة التى كنا نقوم بها، وكل من كان يتقرب إلى بكلمة ابعده عنى أقول له أنه مثل أخى!! كنت مشغولة بقلبى وأفكارى بحبيب القلب بينما كان لا ينشغل بى وحدى!!

بعد ثلاث سنوات من تخرجي وعملى سألته ماذا يمنع زواجنا؟!.. قال إنه غير مقتنع بعمله ولابد أن يتركه فهو يريد أن يكون سيدا لعمله وليس مرءوسا لأحد وإنه لا يريد الزواج وهو فى حالة عدم استقرار. لم أعرف كيف أناقشة، والحقيقة لم أجرؤ أن أناقشه فهل تجرأت يوما

وطلبت منه أن يقابلنى؟! كان هو الذى يحدد الموعد. ترك عمله. تباعدت لقاءاتنا بحجة أنه يكون عملا خاصا. لم تنقطع صلتى بصديقتى أخته بعد زواجها، لكنها بعد أن كانت تحكى عنه أصبحت تتحاشى الحديث عنه. إلى أن طلبتنى يوما لأزورها.

أحتضنتنى وبكت، وهى تخبرنى بزواجه من ابنة رجل أعمال سيشاركه فى عمله. ولما سألته وماذا عنى؟! قال إنه يحبنى مثلما يحبها يعنى أنا مثل أخته! يعنى أنا «خاويت» كل الشبان الذين تقربوا إلى من أجله، وهو كان يخاوينى دون أن أدرى.. وافقت على خطوبتى من أول شاب تقدم لى. حاولت أن اتقبل حياتى. لم أستطع. تركته. ثلاث مرات أدخل فى مشروع خطوبة وأهرب. أربع مرات أحاول أن أحب وأفشل. اهتممت بعملى وثقوا بقدراتى وإخلاصى ووصلت إلى أعلى المناصب وهو أصبح من رجال الاعمال المرموقين الذين تظهر صورهم فى الصحف، ويكتب عنهم فى أخبار النميمة المعروفة بأخبار المجتمع.

أعيش فى شقة وحدى بعد رحيل الوالدين وتفرق الأخوة والأخوات بالزواج وتأتى أختى الصغيرة تؤنسنى عندما يسافر زوجها. تعودت على الحياة وحدى، لكنى لست منعزلة عن الناس بإرادتى أو بإرادتهم!.. فأنا لست صحبة كئيبة أو شريرة كما هو شائع عن الآنسات الكبيرات المعروفات بالعوانس. وأنا اقترب من الستين قابلت أحد زملائى القدامى فى الجامعة فى مثل عمرى وأرمل جمعتنا حكايات عمرنا الشاب، واعترف بأنه كان معجبا بى لكنى كنت أصده. عرفنى

بابنتـه المتـزوجـة وابنه، والذى يشاهدنا ونحن جالسان فى مكان عام يظن أننا زوجان حبيبان ينعمان بحياتهما بعد أن أديا واجبهما نحو أبنائهما. عندما قلت له هذه الملاحظة سألنى لماذا حقيقة لا نتزوج؟!.. قلت إن شاء الله بعد خروجنا إلى المعاش نبدأ حياة جديدة.. وضحكنا.

* * *

عاودت النظر إلى صورته فى الجريدة اختاروا صورة وهو فى نضج الشباب، لا تليق بأنه والد فلان وفلان وفلانه.. وجد أيضا.. لكنها تليق بى تذكرنى بسنين شبابنا.. وحبنا.. سالت دموعى صامتة وقرات له الفاتحة.

موهومة

جلست بجوار زوجى صامتة، فى شرفة الفيللا الكبيرة. حزينة ومحبطة. كانت فرحتى عظيمة بفكرة اننى أجمع أسرتى لمدة عشرة أيام، ابنى وزوجتيهما، ابنتى وزوجها واحفادى الخمسة فى فيللا اجرناها انا وزوجى فى قرية صغيرة على الساحل الشمالى. لم نجتمع بالكامل هكذا، حتى الإجازات الأسبوعية والأعياد كان توحيد مواعيدهم نادرا فى زياراتنا وقضاء اليوم معنا سنوات طويلة نجتهد ونتعب فى عملنا أنا وزوجى لنربى ابناءنا احسن تربية، ونقتصد لتزويجهم، وعندما خرجنا إلى المعاش قررنا ان نخصص جزءا من مكافاة نهاية خدمتنا للصيف، نؤجر شقة واسعة او فيللا لنجتمع فيها كلنا، قررنا أن نقضى الصيف فى أماكن مختلفة من بلادنا. كنت أريد أن أعيد ذكريات الماضى عندما كانت أمى تجمعنا فى الصيف أنا وإخواتى واخواتى وأسرنا. منذ رحلت

أمى لم تعد أسرنا تجتمع. كنت أريد أن أعيد لأبنائى ذكريات طفولتهم وصباهم، واعوضهم عن سنين كثيرة لم نستطع أن نصحبهم إلى مصايف، لكنهم خذلونى!!

سألت زوجى: هل كان يتذمر عندما كانت امى تجمعنا فى الصيف فى شقتها فى الإسكندرية، ولاخلاقة العالية لم يبد أى تذمر؟ قال إن متع التسلية فى ذلك الوقت كانت قليلة، وكانت الحكايات والمناقشات التى تجمع الشباب ثرية، بجانب اننا لم نكن نملك ما يفيض من مرتباتنا لنذهب وحدنا إلى مصيف. قال إن ولدينا يعملان باجور مجزية وابنتنا متزوجة من شاب يعتبر ثريا بأسرته . كنا فى عمرهم لا نملك ما يملكونه الأن، وعلى أى حال فقد مكثوا معنا عدة أيام ، فرحنا بوجودهم، وكل منهم اراد أن يمضى بقية إجازته بالطريقة التى يفضلها فلماذا أحزن هكذا؟!

قلت إن الأولاد- احفادنا- يمكن يكون لهم عذرهم فى التذمر، فلا توجد رياضة يمارسونها، وحتى البحر هنا خطر وبعيد، وهم ارادوا السباحة فى البحر وليس فى حمامات السباحة، لكن البنات المفروض انهن غير الأولاد، فلماذا تذمرن من هذا المكان الهادئ، وقلن انه مكان كئيب !...

كنا ونحن بنات فى عمرهن نفرح بالقليل، نفرح باجتماعنا مع بنات واولاد عائلة أمى فى بيت جدى فى الإسكندرية، كنا نفرح بمجرد السير على الكورنيش نفرح بوجودنا فى أحضان الأهل. قال إن الزمن الأن غير زمان، والحياة غير الحياة، والناس غير الناس .. وما كان

يسعدنا ونحن صبايا لا يسعد الصبايا الأن، وسألنى ان اغير ملابسى لنخرج ونسير فى القرية فنحن لم نكتشفها فى الأيام الخمسة السابقة لانشغالنا بالعمل على راحة ابنائنا وأحفادنا، واليوم أصبحنا وحدنا بعد ان اعتذرت ابنتنا عن تكملة المدة معنا، كما اعتذر ولدانا من قبل، لننعم نحن بنزهتنا، فلا يصح أن نمضى بقية هذه الأيام فى نكد بسبب ما فعله أولادنا.. معك حق.

دخلت الفيللا.. ربما لأول مرة منذ خمسة أيام الاحظ اركانها واثاثها. وجدت ركنا به قواقع بحرية ومركب خشبية صغيرة. أخذت قوقعة كبيرة، وضعتها على أذنى كما كنت افعل مع القواقع التى كانت فى بيت جدى. سمعت خلال القوقعة صوت أمواج البحر. شعرت بوحدة وهزيمة. سمعت صوت أمى تنادى على تسألنى أن اضحك. سمعت ضحكتها الناعمة وسط أمواج البحر. سمعتها تقول اننى أيضا كنت أخالف رأيها ومزاجها. سمعتها تنصحنى ان اتقبل اولادى كما هم الا أحزن.. إنهم مختلفون.. سمعت زوجى ينادى على وضعت القوقعة مكانها.. سألنى: هل سمعت صوت البحر؟

سرنا وقت الغروب نكتشف القرية الساحلية الصغيرة، فيللات وشقق فى مبان غير مرتفعة بسكانها، وأخرى خالية مغلقة. أو لم يكتمل بناؤها وجدنا مقهى صغيرا. جلسنا رحب بنا صاحب المقهى.. سكان جدد؟! سألنا قال زوجى: إننا مؤجرون ولسنا مالكين، قال الرجل إن هذه القرى الساحلية كان المفروض ان تكون معظم مبانيها فنادق بدرجات مختلفة ومساكن بالإيجارات المعقولة لتكون كلها عامرة فى الصيف، وحتى لا

تكون مثل الخرائب الخالية معظم شهور العام. وافقة زوجى.. وجدنا حديثا يملأ الفراغ بيننا، عن هذه القرى التى لم تكتمل الخدمات الحياتية فى معظمها كما قال لنا صاحب المقهى.. عن الإعلانات المهولة التى تملأ الجرائد مع مطلع كل صيف منذ سنين قريبة عن هذه الأماكن وإغراءات الشراء.. كلها للشراء!!

قمنا لنواصل سيرنا. سألنى زوجى ماذا قال ابننا الاكبر قبل ان يسافر مع اسرته؟..

«قال انه لا يتحمل الحياة مع كل هذه الأجساد فى بيت واحد وان زوجته جاءت لتتفسح لا لتساعد فى الطبيخ لقبيلة».. ضحك زوجى وقال...

«اتذكر حماتى عندما كانت تجمعنا فى شقتها فى المعمورة اكثر من عشرين شخصا».. زادت ضحكاته

«وكانت تقول الصيف يحب اللمة.. وكانت الأسرّة غير كافية فتقول حصيرة الصيف واسعة».. تعالت ضحكاته..«وكنا نصدقها وننام على الأرض مسرورين».. ضحكت.

زادت ضحكاته:« كانت حماتى تؤجر شقة المعمورة طول العام بمبلغ يقل عن ربع المبلغ الذى دفعناه إيجارا لمدة عشرة أيام هنا.. وكانت دائما تذكر ذلك المبلغ لنا لحرصها على سعادتنا فى الصيف» ضحكت.. سألنى ماذا قالت ابنتنا فى اعتذارها؟!

، إنها لابد أن تقضى بقية أجازتها وزوجها مع اسرته فى منتزه الإسكندرية كما تفعل كل عام..، ضحكت ، كما ان زوجها لا يحب لعب الطاولة التى تجبره على مشاركتك فيها، ضحك.. قال:، اتذكر حماى عندما كان يلاعبنا الطاولة انا وإخواتك وازواج أخواتك بالدور ونتركه يغلبنا ليفرح ويشترى لنا أيس كريم.. تذكرين كانت جلستنا المسائية فى الحديقة التابعة لتلك الشقة الأرضية، .. تعالت ضحكاته.. ، اتذكر عندما انتهزت اختك فرصة انشغال والدك فى لعب الطاولة معنا وخلو حجرته واخذت زوجها ليمارسا الحب تحت سريره.. كانت معذورة، فى النهار الحجرات مفتوحة وفى الليل متكدسين فيها.. وأراد والدك أن يحضر شيئا من الحجرة فوجد سريره يتحرك. صرخ حرامى.. كانت فضيحة، .. تعالت ضحكاتنا..،إلى الأن لا أدرى كيف فعلاها تحت الفراش؟!،

،اعتبرتها أختى فضيحة مع أنها كانت مع زوجها!! وأرادت أن تترك المصيف من شدة خجلها، والعالم الأن يتحدث فى الأمور الجنسية كما يلوك اللبان، والبنت التى عملت فضيحة حقيقية لرئيس امريكا وقفت أمام العالم تحكى ببجاحة وقاحة تفاصيل علاقتها الجنسية معه.. ياخبر أسود!، وتعالت ضحكاتنا. سألنى ماذا قال ابننا الثانى قبل أن يسحب أسرته لقرية ساحلية أخرى؟!..

،قال أنه يضطر كل مساء أن يصحب ابنتيه وزوجته إلى هذه القرية التى تبعد عن قريتنا بعشرين من الكيلو مترات والطريق فى المساء خطر، لأن اعز اصدقائهم هناك، كما يوجد بالقرية تسالى كثيرة فأجر

شقة صغيرة هناك لمدة أسبوع بمبلغ من المال لا يقل كثيرا عن المبلغ الكبير الذى دفعناه فى الفيللا الكبيرة هنا».. ضحك وقال:« تذكرين عندما تشاجر والدك معنا لاننا اشترينا اربعة كيلو عنب بجنيه، قال إن البائع ضحك علينا واننا « نبعزق» نقودنا» !! تعالت ضحكاتنا.

وتشعب بنا الحديث الضاحك عن مفارقات الحياة.. ماذا كان؟! وماذا الأن؟!.. وتعالت ضحكاتنا إلى أن وصلنا إلى الفيللا.. جرت الدماء فى عروقنا من السير من الضحك. جلسنا فى شرفة الدور الأرضى.. واه يا أمى.. واه يا أبى.. وتنهيدة من الأعماق ونحن نقول كانت أيام جميلة..

تساءلت: لماذا الأيام الجميلة تكون دائما فى الماضى؟! قال: « ربما لأننا لا نشعر بها إلا بعد مرورها.. يعنى لا نشعر بها ونحن نعيشها.. ولأننا الأن كبرنا فلابد أن ندرك اليوم الجميل الذى نعيشه ونفرح به»

«من زمن لم نضحك معا من أعماقنا.. على الرغم من كل شئ.. الأولاد.. والنقود الكثيرة التى دفعناها فهذا مساء جميل فى حياتنا»..

مكافحة

خلفية حياتى ليست حالة خاصة، فكنت مثل الاف الشباب الذين يتولون مسئولية أسرهم فى سن مبكرة، عندما يتوفى الأب فيتولى الابن الأكبر أو البنت الكبرى هذه المسئولية. كنت البنت الكبرى لثلاث بنات وولد صغير، وأم لا تعمل. توليت مسئولية هذه الأسرة وانا فى عمر السادسة عشرة. أخذنى خالى إلى صديق له صاحب مصنع صغير للأدوات المنزلية لأعمل أى شئ.المهم أن يعطينى عشرة جنيهات فى الشهر مع معاش أبى الضئيل يمكننا أن نعيش ونتعلم، كانت الجنيهات العشر لها سحر كبير فى ذلك الزمن! كنت أعمل أى عمل يطلب منى حتى وإن كان عمل شاى أو قهوة. وكنت فى المرحلة الثانوية فى الدراسة. ولما وجد صاحب المصنع اننى متفوقة كان يسمح لى بالعمل بعد اليوم الدراسى إكراما لصديقه.

أنا لا اتباهى بكفاحى وأقول فعلت، وعملت، ودرست، ولم أعمل كتابا مثل «هتلر» عن كفاحى! وكيف تحملت مسئولية إعاشة اسرة وتعليم اخواتى وأخى، ولم اترك دراستى فالتحقت بمعهد تجارى بعد شهادة التوجيهية أو الثانوية، ولتفوقى استطعت تكملة تعليمى فى كلية التجارة.. بمجرد التحاقى بالمعهد التجارى اسند إلى صاحب المصنع وظيفة إدارية وزاد مرتبى خمسة جنيهات!. تربيت فى هذا المصنع وكبرت معه استولت عليه الحكومة فى أول رئاسة للثورة، وأعيد لأصحابه فى ثانى رئاسة. ولم اتركه، بل كنت اعمل بجهد اكثر اثناء غياب اصحابه، كما لو كنت اقوم بالعمل نيابة عنهم حتى لا يخسر المصنع او يغلق كما حدث لمصانع كثيرة صغيرة. حفظت جميلهم على، لذلك قدروا جميلى عليهم عندما عادوا، فقد كان صاحب المصنع قد الحق بالعمل معه شركاء من ابنائه وازواج بناته، ولم يعش طويلا بعدعودة المصنع لهم.

انا لا اتباهى بكفاحى لكن الأوسمة كثيرة على صدرى، فكلما انهت اخت من اخواتى دراستها العالية أو المتوسطة اشعر بهذا الوسام على صدرى. كلما زوجت واحدة منهن اجد هذا الوسام على صدرى، وتنبهت إلى عدم تدليل أخى الصغير كما تفعل معظم الأسر التى تدلل الولد الوحيد بين البنات فيفسد!

تزوجت فى سن متأخرة بعد الثلاثين، وأنجبت ولدا واحدا فى السنة الأولى للزواج. تزوجت عن إعجاب متبادل مع موظف فى شركة حكومية. تقدم لى عن طريق الاقارب وعجلنا بالزواج بناء على طلب

أمى التى كانت مريضة وتريد أن تطمئن على. لم نفهم بعضنا تماما، ولم يحتمل كل منا شخصية وطباع الأخر. استحالت الحياة بيننا فانفصلنا. ترك الولد معى وتزوج، وكان شرط تركه الولد الا ينفق عليه. لم أهتم فقد تعودت على ذلك!..

كبر المصنع وأصبح شركة كبيرة وكبرت معه وأصبحت مسئولة عن إدارة التسويق والإعلان.. اعطيت لعملى الكثير فاعطانى الأكثر.. سافرت إلى بلاد فى اوروبا وافريقيا واليابان.. جلست مع وزراء وسفراء انتقلت إلى حى سكنى افضل ، واشتركت فى ناد رياضى معقول لاتيح لابنى حياة اجتماعية ورياضية.

لم اتذمر من العمل طول عمرى، وأعتقد ان سعادة الإنسان الحقيقية فى أدائه لعمله مهما كان العمل بسيطا لذلك اتعجب من بعض بنات أخواتى وصديقاتى اللاتى يرفضن العمل ويردن الزواج من شبان يصرفون عليهن. يتخرجن من الجامعات، وبدلا من تقديم أوراقهن لمكتب العمل او كما يسمونه الآن القوى العاملة يقدمن أوراقهن إلى مؤسسة الزواج، يعتبرن الزواج مثل الوظيفة المهم ان تكون ذات عائد مادى كبير إذا لم تعجبهن يبحثن عن وظيفة اخرى فى مؤسسة الزواج، ليس لى أن انتقدهن لأنى «لخبطت» الأوراق فى حياتى واعتبرت الوظيفة أبدية والزواج لبعض الوقت! والعجيب أن أمهاتهن اللاتى كافحن وعملن يشجعنهن على هذا. الحمد لله أننى أنجبت ولدا، وتشبع بارائى وتزوج من فتاة عاملة وشجعها على الاستمرار فى العمل.. عندما وصلت إلى الستين وجدت أننى أعمل منذ أربع وأربعين سنة.

قررت أن أضع نقطة، وأبدأ سطرا جديدا. حياة جديدة، أن أستريح. أقوم من نومى وقت ما أريد. أمضى يومى فى لا شىء. أذهب إلى النادى. أسافر إلى أماكن فى وطنى لم أزرها، أسافر للخارج فى سياحة وليس عملا، باختصار أريد أن أستمتع بالحياة. عندما أخبرت أصحاب الشركة برغبتى، ظنوا أننى لشدة حرصى على كرامتى فتحت لهم موضوع ترك العمل. قالوا إننى أعلم إنهم لا يخضعون لنظام خروج العامل أو الموظف إلى المعاش فى هذه السن وإننى أعلم أنهم يحتفظون بالكفاءات مادامت الكفاءة قادرة على العطاء، فلماذا أريد أن أتركهم؟!

قلت لهم أريد الاستمتاع بحياتى، قال كبيرهم أن أخذ اجازة ثلاثة أشهر أو أربعة طوال شهور الصيف وأعود. تحت إلحاحهم وافقت ظاهريا، وفى داخل نفسى كنت أريد أن أنفذ خطتى للاستمتاع بحياتى، وبدأت أجازتى أول الصيف.

ليست أول مرة أسافر مع أبنى وزوجته فى اجازتهما الصيفية إلى شقته فى العجمى لكنها أول مرة ألاحظ أشياء كثيرة لا تعجبنى فى زوجته خصوصا فى طريقتها لتربية حفيدى. تدخلت فتأثرت زوجة ابنى بشىء من الغضب، كنت أقضى معهما عدة أيام وأنا تفكيرى منشغل بعملى حتى إنى كنت أطلب مكتبى كل يوم. أما هذه المرة فقد كنت سأمضى معهما كل اجازتهما ولست منشغلة بسير العمل فانشغلت بهما وكانت ملاحظتى التى أغضبت زوجته.. وليست أول مرة نذهب فى المساء إلى المقهى العائلى فى المنطقة، ولأول مرة أشهاد الجدات مع ابنائهن وأحفادهن، لكنها أول مرة ألاحظهن، تخيلت منظرى بعد

سنتين أو ثلاث وأنا مثل هؤلاء الجدات، وقد أهملت مظهرى وصحتى ومددت ساقى على مقعد أو انحنى ظهرى من كثرة الجلوس بلا عمل حقيقى. هززت رأسى بالنفى،لا.. لن أكون مثلهن، لم أنم تلك الليلة وفى الصباح الباكر حزمت حقيبة ملابسى، وتساءل ابنى وزوجته إذا كانا قد أغضبانى فى شيء فلم أمض معهما سوى أربعة أيام! قلت لهما إننى أتصلت بصديقة لى فى النادى الرياضى واخبرتنى أنهاكانت تبحث عنى لأنها حجزت لى فى رحلة مع النادى إلى شاطئ فى البحر الأحمر بعد ثلاثة أيام، وكانت صادقة إلا فى مسألة أنها حجزت لى - أنا التى سألتها أن تحجز لى!

ليست أول مرة اجتمع فيها مع شلة نساء من النادى، فى مثل عمرى أو أكبر قليلا، لكنها أول مرة اقترب منهن كثيراً لعدة أيام، وهن أرملتان لم تعملا من قبل، ومطلقة وثلاث عاملات متزوجات خرجن الأربع قبلى إلى المعاش، كنت ألقاهن فى النادى لعدة ساعات كل أسبوع أو اثنين ونتحدث فى أمور مختلفة معظمها عن النادى. لأول مرة استمع إلى شكواهن من الابناء والبنات الذين انشغلوا بحياتهم عن أمهاتهم والشكوى الصارخة من المعاشات التى أصبحت لا تكفى تكاليف الحياة.. تخيلت نفسى بعد سنتين أو ثلاث وأنا أشكو مثلهن. وإننى أسحب من رصيدى فى البنك إلى أن ينتهى، وإننى أعيش عالة على ابنى! أو تتكدر ملامح وجهى مثل الأرملتين من كثرة نقدهما، وتبحث عيناى مثلهما عن القبح فلا تستطيعان الاستمتاع بأى مجال! لا لن أكون مثل هؤلاء الندابات، إنضممت إلى مجموعة من البنات والشبان فى الرحلة والحمد لله تقبلونى فى صحبتهم اليومين الباقيين.

وانضمت لنا صديقتى المطلقة فهى المقربة لى من هؤلاء النساء اللاتى قلن إننى وصديقتى متصابيتان تريدان اصطياد الشبان!

بعد تلك الرحلة مكثت فى بيتى أعيد تنظيم «الدواليب» ألصق الصور الفوتوغرافية فى «ألبومات»، عندما كنت أنظر إلى هذه الصور كنت ابتسم بسرور مع تلك الذكريات، وجدت نفس الصور تثير الشجن لأيام لن تعود! مضى شهران على اجازتى أو قرارى بعدم العمل، وبدأت أشعر بملل من حياتى الخالية البطيئة، أخرج مع واحدة من أخواتى للشراء.. أذهب لزيارتهن أو يحضرن لزيارتى. كذلك أخى وابنى. أذهب إلى النادى، أسير بلا هدف، هل ستسير حياتى هكذا؟! بدأت أشعر باكتئاب وآلام فى بدنى، لا استطيع أن أتحرك بسهولة فى الصباح. خفت، ذهبت إلى طبيب، أشار بعمل فحص شامل.. عدت له بالتقارير، قال إنها أشياء بسيطة والحمد لله، لكنها لا تؤثر هكذا على كل البدن، سألنى: هل انفصلت عن الزوج قريباً؟! قلت إننى مطلقة من حوالى ثلاثين عاما!! سألنى هل كان يوجد شىء معين أفعله أو أقوم به ثم امتنعت عنه؟! قلت له كنت أعمل، ذكرت له عملى ومركزى، ربما لاحظ الطبيب أننى حدثته عن عملى بحب وحنين وافتقاد كأنى أحدثه عن حبيب غال يهددنى بالهجر، فسألنى.. هل استغنوا عنى فى العمل؟! قلت: إنهم يريدون أن أستمر، قال بحزم.. عودى. عملك هو دواؤك.. وعدت.

حالمة

كان العالم يتنفس الصعداء لأنتهاء الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥ وتحتفل الشعوب بأحلام السلام، وكان الأب يحتفل مع ابنائه وبناته الثمانية بسلامة الأم بعد وضعها للأبنة التاسعة التى جاءت ضعيفة البنية ولم تنطق بكلام إلا فى سن متأخرة.

فى أول عهد الثورة صدر قانون الإصلاح الزراعى لتحديد ملكية الأرض الزراعية، مائتى فدان للأسرة، لم تفهم البنت ذات السبع سنوات كلام الأب فى الاجتماع العائلى، إنهم اصبحوا تقريباً من الفقراء، لأن الثورة صادرت لهم ثلاثمائة فدان! وأنه سينقل بناته الثلاث من المدارس الأجنبية ذات المصروفات العالية إلى المدارس الحكومية، وأن يكمل ابناؤه الأربعة تعليمهم الجامعى ليجدوا وظائف بعد ذلك، وكانت ابنتاه الكبيرتان قد زوجهما فى سن السادسة عشرة.

فى عمر العاشرة شاهدت فيلماً لا تنساده عن قصة حب الموسيقار البولندى «شوبان» والكاتبة الفرنسية «جورج صاند» أعجبت بالمرأة المتشبهة بالرجال فى زيهم وحلمت أن تكون مثلها، وأعجبت بالموسيقار وحلمت أن تعزف مثله ألحاناً رومانسية، طلبت من والدها أن يحضر لها «بيانو» فوعدها عندما تنجح لكنه لم يف بوعده، وفى عمر الثانية عشرة شاهدت فرقة الباليه الروسى المشهورة «البولشوى» على مسرح دار الأوبرا القديمة، أعجبت بالراقصة الأولى للفرقة التى كانت الأميرة المسحورة فى بحيرة البجع.

حلمت أن تكون مثل البطلة راقصة الباليه، قالت لوالدها إنها تريد أن تتعلم رقص الباليه، فنهرها غاضباً: إنه لا ينقصه من حكم الزمن عليه إلا أن تصبح إحدى بناته راقصة!! فى سن الرابعة عشرة عشقت الأفلام الكلاسيكية، والروايات الرومانسية، كانت صديقاتها وزميلاتها يشترين من مصروفهن أدوات الزينة والمصوغات الرخيصة، وكانت تشترى الروايات العالمية المترجمة.. كانت البنات يحلمن بالشبان من أولاد الجيران، وكانت تحلم بشبان من نوع آخر، غير هؤلاءالذين يصنعون ضجيجاً بألعابهم الصبيانية.

فى عمر السادسة عشرة، فى العام الأول من الستينيات لم يحتمل والدها الصدمة الثانية لقانون الإصلاح الزراعى الثانى بجعل ملكية الأرض الزراعية مائة فدان للأسرة، قال إنهم أصبحوا فعلاً فقراء و.. مات.. تولى الأخ الأكبر زمام الأرض الباقية وكان قد تخرج من كلية

الزراعة، كما تولى مسئولية الأسرة، وتقبلت التغيرات التى حدثت لأسرتها بدون فزع من الفقر الذى توهمه والدها ولم يصبهم فعلاً، كانت أحلامها تحميها.. ولحبها للاداب العالمية التحقت بكلية الاداب قسم اللغة الإنجليزية.

كان الأخ الأكبر يهتم بتعليم إخوته وأخواته وتوظيفهم وتوظيفهن ثم تزويجهم وتزوجيهن. وعندما جاء الدور عليها فى الزواج بعد أن تخرجت من الجامعة وعملت بالترجمة فى شركة كانت لديها حجج كثيرة لتأجيل الزواج، لم تقل أصدقها وهو أنها لم تقابل فارس أحلامها بمواصفاته القديمة الرومانسية، إلى أن قدم لها أخوها شابا ابن صاحب أعمال ويعمل مع والده، فى سنوات السبعينيات عندما بدأت النظم تتغير وأبواب الأعمال الخاصة تفتح لمن يريد ويستطيع أن يدخل منها، أعجبها شكله وتعليمه، وكلماته الرومانسية، وقت الخطوبة، وظنت أنه فارس أحلامها الذى عاشت تنتظره وتحلم به، لكنه ككل الماليين خبير بالحساب أكثر منه خبيراً بالنفس البشرية، أحبها لجمالها الهادئ وطبعها الرقيق، لكنه لم يفهم حاجاتها العاطفية، لم يهتم بسكونها، ولم يسأل عن شرودها، ويتعجب لفرحتها الساذجة لظهور زهرة جديدة فى حديقة شرفتها،وفى جلستهما معا فى أوقات فراغه النادرة يحدثها عن حسابات المكسب والخسارة فى أعماله ولا يحدثها بأى كلمات عاطفية، مع بداية حملها الأول طلب منها زوجها أن تترك عملها الوظيفى، لم يكن عملها محققا لأحلامها فلم تعترض وتركته، اهتمت بطفلها الأول ثم جاء بعده بعامين طفلها الثانى، انشغلت عن أحلامها بتربيتهما ورعايتهما.

فى منتصف الثمانينيات، وابنها الأكبر عمره عشر سنوات، والثانى ثمانية أعوام تلقت مكالمة تليفونية من والد زوجها يطلب منها أن تتحمل الصدمة، فزوجها مات فجأة فى المكتب.. وتحملت.

ساندها أخوها الأكبر فى رفضها لفكرة «حماها» أن يأخذ الولدين ليربيهما لتعيش حياتها هى وتتزوج، قالت له: إذا أراد أن يساعدها حقيقة فليحاول تزكيتها فى مكان عمل لتعمل، ليس لأن النقود التى تصلها غير كافية، لكن لأنها لا تريد أن تعيش فى فراغ، وأعربت بإصرار عن قرارها فى تربية ولديها وعدم زواجها مرة ثانية، فهى فى قرارة نفسها أيقنت أن حكاية فارس أحلامها هذه فقط لأحلامها، أما الحقيقة فهى شىء آخر تماما خصوصا مع التغيرات التى حدثت فى المجتمع والناس وطغت التصرفات السوقية على تصرفات الفروسية، كما أيقنت أنها من هؤلاء الناس الحالمين الذين لا تستطيع قدراتهم تحقيق أحلامهم، وهكذا عملت فى العلاقات العامة لشركة كبيرة، وظيفة بعيدة تماماً عن أحلامها القديمة.

ثلاثة عشر عاماً مرت على ترملها، اقتنعت بواقع حياتها ونسيت أحلامها وفرسانها، وفى أحد المؤتمرات الذى تشترك فيه الشركة التى تعمل بها وتكون فى طليعة المسئولين عنه، وهى تقترب من منتصف عمرها الخمسينى ظهر لها فارس الأحلام، تبعاً لسياحة المؤتمرات، عقد المؤتمر فى مدينة ساحلية، فى شرفة الفندق المطل على البحر جلست تراقب الغروب فى هذا الجو الخريفى المائل للغموض والبرودة، سارحة فى شىء غير محدد، ظهر أمامها بمظهره الأسطورى كأنه بطل فى

رواية كلاسيكية، قدم لها نفسه، إنه من المشاركين فى المؤتمر، جاء متأخرا وقالوا له أن يذهب إليها لتعطيه الأوراق المطلوبة والندوات المطبوعة.. نظرت إليه ساهمة كأنها لم تسمعه، أعاد عليها طلبه، فقامت وهى تسأله أن يتبعها لتعطية ما يريد، اعتذر لها عن قطع تأملاتها فى الأفق الجميل وسألها أن تسمح له بفنجان قهوة معا.. عادا إلى مكانها فى الشرفة، تحدثا عن المؤتمر وما فاته فى الصباح، فجأة سألها إذا كانت قد شاهدت المسلسل اليابانى «أوشين» قالت إنها تابعته وأعجبت به.

قال: إنها تشبه «أوشين» وضحكت فملامح وجهها قريبة من وجوه أوروبيات سواحل البحر المتوسط وليس باستدارة وجوه يابانيات سواحل اليابان. قال إنها تشبهها فى هدوئها وطريقة كلامها وابتسامتها العذبة، وربما فى كفاحها لتصل إلى هذا المنصب فى عملها، ضحكت وأخبرته أنها من أسرة كانت إقطاعية حتى بعد أن أخذوا منهم الأرض لم يمسهم الفقر بفضل ما تركوه لهم. لم يعرف أنه كما رآها تشبه هذه الشخصية الأسطورية «أوشين» وأنها خرجت له من حضن الزمن العريق، هى أيضاً رأته يشبه أحد أبطال التاريخ القديم، فارسا خرج لها من حضن الزمن النبيل، وربما لذلك التقت أفكارهما وأمتدت أحاديثهما إلى وقت العشاء، عرف باختصار وضعها الاجتماعى، وعرفت أنه زوج وأب لشابين وفتاة، توالى لقاؤهما فى قاعات المؤتمر وخارجها، توالت احاديثهما فى مختلف أمور الكون، كل منهما كأنه وجد ضالته، كل منهما كأنه خلق ليكمل الآخر وتصافحها فى نهاية الأيام القليلة للمؤتمر ليذهب كل منهما لحياته وناسه، إنهما لم يتهامسا.. ولم يتلامسا.. ولم

يقل أحدهما للآخر، أحبك، أو كلمة ندم تعبر عن سخطه على الظروف التى لم تجعلهما يلتقيان من سنين! لم يفكرا بإمتداد علاقتهما بوعود لقاء، لم يقل أحدهما للآخر ليتنا كنا، أو ياليتنا نصبح، لم يطلب أحدهما من الآخر أن يعطيه رقم هاتفه ليسمع صوته من حين إلى حين، ولم ينتظر أحدهما من الآخر أن يقول له عن سر ما شعر به.

سألها ولداها عن سر ابتهاجها منذ عادت من المؤتمر، ولأنها ربتهما على أن يكونا صديقيها، ربتهما على الصراحة مهما كانت صعبة ومؤلمة ولأنها تعودت على هذا معهما، قالت إنها التقت بفارس أحلامها بعد أن فقدت كل أحلامها، سألها الأبن الأكبر: لماذا لم تنفصل عن والده عندما اكتشفت أنه لا يلائمها، ولماذا لم تتزوج عندما مات، وهل ستتزوج من فارس أحلامها؟! قالت: إن الأخلاق التى تربت عليها فى زمنها لا تسمح للبنت إذا تزوجت أن تطلب الطلاق لسبب تافه لأن زوجها ليس فارسا لأحلامها خصوصا إذا كان موفيا لطلباتها محبا لها وهى غير كارهة وخصوصا إذا أنجبت مباشرة، وتلك الأخلاق لا تسمح لها إذا ترملت وكان لديها ابناء أن تتزوج وتجلب لهم أبا غريبا عنهم ربما لا يحبهم، خصوصا إذا كانت غير محتاجة مادياً، أما الرجل الذى قابلته أخيراً فهو متزوج وله أبناء، فهل الأخلاق التى تربت عليها تسمح لها أن تسرق رجلاً من زوجته حتى إن كان فارساً لأحلام عمرها!.

صديقتان

● شريرة ●

توجد نبضة مفاجئة فى القلب، خفقة، تحدث من مفاجأة سارة أو مفاجأة خوف أو توتر، شعرت بخفقة الخوف والتوتر عندما جئت وجها لوجه مع صديقتى القديمة، على هذا الشاطئ البعيد فى الساحل الشمالى. تبادلنا السلام بترحيب زائف وقبلات باردة، أى حظ عاثر قذفها إلى هذا المكان النائى لتعكنن على أجازتى؟!

سألتها مباشرة هل ستقضى اجازتها هنا؟ أجابت بتهكم إنها جاءت مع زوجها لزيارة قريبة لها لتشاهد المكان وربما تشترى بيتا، وأنها ستعود نهاية اليوم إلى الاسكندرية حيث تركت ولديها مع زوجتيهما، ثم سألتنى وماذا عنى أنا؟ قلت: إننا اشترينا بيتا صغيراً، لم أسألها أن تأتى لمشاهدته واستأذنت فى الانصراف لألحق بحفيدتى وحفيدى.

وأسرعت خطواتى. جريت إلى أن وصلت إلى أسرتى على الشاطئ. ارتميت لاهثة على مقعد بجوار زوجى.

سألنى: لماذا جريت كما لو كنت مطاردة من شبح؟! صوت البحر يفجر الذكريات. موجة وراء موجة تفتح صفحة من الماضى، منذ قابلتها فى مدرسة الروضة تعلقت بها سنين طويلة، فى كل مرحلة عمر ودراسة كان لها معى مقالب شريرة ومع ذلك استمرت صداقتى لها. أذكر فى المدرسة الابتدائية أنها أعطتنى علبة مليئة بقطع الشيكولاته لأوزعها على بنات الفصل بمناسبة عيد ميلادها. التهمت البنات الشيكولاته كما التهمت أنا واحدة وتعالى صراخنا. جرينا إلى دورة المياه لنغسل أفواهنا الملتهبة، وجاءت المشرفة لتسأل عن سبب الصراخ فقالت لها صديقتى إننى اعطيت البنات شيكولاتة بالشطة. فأخذتنى إلى مكتب الناظرة، اخبرتهما خلال دموعى بما فعلته صديقتى وكيف أصاب مثلهن إذا كنت أنا الفاعلة وهى لم تصب؟ عاقبتها الناظرة ونالنى عقاب مثلها! اضرار كثيرة اصابتنى من جراء أفعالها التى كانت تقول إنها مقالب لنضحك!

أذكر صاحب محل الخردوات وهو يجرى خلفنا فى الطريق وهى تشدنى من يدى لأجرى معها أنا لم أفهم لماذا يطاردنا إلى أن لحقنا وأمسك بنا وهو يصبح.. حرامية.. سألته صديقتى ببجاحة أن يفتشها وفعلا لم يجد فى حقيبتها شيئا، وكاد أ ن يغمى علىّ عندما فتح حقيبتى ووجد المسروقات! شتمنا وأقسم أنه إذا شاهدنا فى دكانه سيسلمنا للبوليس، ضحكت صديقتى أمام ذهولى وقالت إن منظر الرجل كان

مضحكا، فى عمر المراهقة كانت جرأتها تسمح لها بمصاحبة الأولاد فى مدرسة البنين التى كانت بجوار مدرستنا الثانوية، وكانت تصحبنى معها لنسير فى الطرقات البعيدة عن مدرستنا، وذات يوم وأنا فى زيارتها فوجئت بأمها تؤنبنى لأنى أصحب ابنتها معى لمقابلة الأولاد، الجمتنى المفاجأة واعتذرت صديقتى لأمها نيابة عنى، والذى كان معنا ابن عمى!

كنت أخاصمها بعد كل مقلب تشركنى فيه، وكانت تصالحنى بنكتة أو سخرية من شىء أو أحد وأضحك معها وتستمر صداقتنا، لم أفهم الشر الكامن فيها إلا بعد سنين طويلة من صداقتنا وعندما فرقت بينى وبين الشاب الذى أحببته ونحن فى الجامعة لم أعرف فعلتها إلا بعد سنين من فراقنا، عرفنا معنى أن نحب فى وقت واحد. هى أحبت طالباً فى كلية البوليس، وأنا أحببت طالبا فى كلية الطب، تعرفت عليه فى اسبوع رياضى للجامعة، كان من عائلة ثرية فى ذلك الزمن، وقد شجعتنى على اللقاء به، وكانت فى صحبتنا دائماً، وعندما قرر والده، أن يرسله إلى إنجلترا ليكمل دراسته الطبية وعدنى بالزواج عندما يعود، لكن خطاباته انقطعت فى العام الثانى لسفره. انشغلت بدراستى ثم بعملى ومع ذلك كنت انتظره، إلى أن فوجئت بصورة زفافه فى مجلة مصورة بعد أن عاد من دراسته لقريبة له. بكيت على صدر صديقتى وواستنى ولعنته وأسرته، وعلمت بعد عدة سنوات أنها هى التى فرقتنا، قابلته صدفة وأخبرنى أنه أساء إلى عندما صدق وشاية عن سوء سلوكى من خطابات كانت ترسلها له صديقتى، وأنه علم ببراءتى من تلك الخطابات، لم أسأله كيف عرف براءتى.. ولم أخبر صديقتى بل كدت

أشكرها لأن فعلتها ضدى كانت مكسبا لى لنجاتى من الارتباط به. كان يمكن أن ينغص حياتى بشكه، لم أقاطعها لكن أصبحت أخفى عنها أسرارى. وعندما أحببت الشاب الذى أصبح زوجى فيما بعد أخفيته عنها لكنى لم أخف عنها الدعوة لحفل قرانى.

بخفة دمها رحب بها زوجى، وكانت لم تتزوج بعد فكانت بصحبتنا كثيراً، وكان زوجى يشركها فى خلافاتنا، فتأخذ جانبه وهى تغمز لى بعينها أنها معى وليست معه، وفوجئت يوما بسؤاله، هل صديقتى هذه شريرة؟ قال: إنها لا تحبنى كما أعتقد، لم أرد معرفة ماذا حدث بينهما. وبدأت أفهم أن الإنسان لا يصح أن يترك حياته تسير هكذا بدون وقفات يراجع فيها نفسه وعلاقاته، راجعت تصرفات صديقتى معى، وأيقنت أننى بالرغم من السنين الطويلة التى صادقتها فيها. كنت دائما فى صحبتها متوترة. وأصبحت أشك فيها، ولم أرتح لصحبتها بعد زواجى، شعرت براحة غريبة عندما قررت الابتعاد عنها، اصبحت زياراتنا فى حدود الرسميات بعد أن تزوجت هى. ومع مرور السنين تباعدت زياراتنا.. أخبرت زوجى عن الشبح الذى كان يطاردنى على الشاطئ، فقال: إنها إذا اشترت بيتا فى هذه القرية سنبيع بيتنا.

● طيبة ●

هذه الغبية عندما شاهدتنى أمامها كان عقرباً قرصها، كأنى جئت خصيصا لأقتحم حياتها بعد سنين طويلة من ذبول صداقتنا، عندما شاهدتها فى روضة الأطفال وجدتها مثل العروسة التى أهداها لى

والداى، وجهها مستدير، عيناها زرقاوان، شعرها أصفر، ولأنى كنت طفلة وحيدة فرحت بوجود هذه العروسة الآدمية لأتحدث معها وتحدثنى، لألعب معها وبها. لم افترق عن عروستى صديقتى لسنين طويلة، جعلتها تلتصق بى ولا تستطيع التصرف فى أى شىء دون الرجوع إلى.. هى تابعتى. كان الشبان يحبوننى لخفة دمى ولأنى صاحبة نكتة، لكنهم كانوا يعجبون بها أكثر، لم يكن هذا يضايقنى فهى مخلصة لى، لا يمكن أن تسرق شابا منى، أنا يمكن بذكائى أسرق حبيباً لها، يقولون إنها طيبة والحقيقة هى غبية، وكنت أقول ساخرة إننى لست جميلة لكنى خفيفة الدم وذكية وصديقتى جميلة لكنها ثقيلة الدم وغبية.

باركت حبها لطالب الطب الثرى لأنى كنت أستفيد من ثرائه كنت دائماً فى صحبتهما. استمتع بالنزهات والهدايا.. أعتقدت أن علاقتهما لا تتعدى الحب، لكن عندما وعدها بالزواج اغتظت فى مواقف كثيرة اجتهدت لألفت نظره إلى ذكائى وغبائها. وهل الغبية تصلح لشاب طموح أم الذكية؟ بذكائى صرفت نظره عنها. مادامت صديقتى فلابد أن تظل على مستواى الاجتماعى والمادى، وهل تصعد التابعة فوق رأس رئيستها؟ وتتزوج من ثرى؟!

واسيتها وبكيت معها يوم زواج حبيبها الطبيب وحقدت عليه لأنه لم يخترنى.. واصبحت تخفى على علاقات حبها بعد سنوات من زواجه، إلى أن فوجئت بدعوتها على عقد قرانها لمهندس شاب وفى مستوانا الاجتماعى استطعت أن أجعله يستمتع بصحبتى معهما. كنت فى ذلك

الوقت انتظر زواجي من شاب أحببته ولظروف لم أفهمها تهرب من الزواج بينما تابعتى بدأت تنعم بالزواج، فى خلافتها مع زوجها كنت أقف بجانبه واتعمد إظهار خطئها أو غبائها، وصدقتنى عندما قلت لها أننى أشبع غرور الرجل لكنى معها عملت على «فشكلة» زواجها حتى لا تنشغل عنى لتبقى بجانبى مثلى ابنتنى أمى كثيرا لأنى لا أسعى للزواج وكيف سأعيش وحدى بعد رحيلها وأبى. قلت لها إننى سأعيش مع صديقتى تابعتى. كنت على يقين من فشل زواجها لكثرة خلافاتها مع زوجها. وكنت أعمل على إشعال الخلافات وليس إطفائها كما ظن زوجها لأنى كنت أعمل ذلك بحرص شديد، لكن الملعون زوجها استشعر خطتى من أحاديثه معى بعيداً عنها.

وفجأة وجدتها تبتعد عنى، عندما انجبت أول مولود لهما يئست من انفصالهما، فتزوجت من زميل لى فى العمل اخترته لأنى وجدت فيه تعويضا عن صديقتى. كان يحبنى فيتصرف كما يحلو لى. تابعاً لى. أردت أن أعيد علاقتى بها بعد زواجى، لم استطع أن أكون مع زوجى ثنائيا ملتصقا بها وزوجها، غبية استغنت عن صداقتى وفضلت تبعيتها لزوجها، على أى حال كل منا اصبحت لها حياة اجتماعية مختلفة، وربما ظنت بغبائها أننى أريد أن أعيد الوئام القديم بيننا بحديثى معها على الشاطئ، طبعاً لن أشترى بيتا فى هذه القرية النائية المقرفة، قلت لزوجى أننى قابلت على الشاطئ الشقراء الغبية التى كانت صديقتى فقال إنها.. ست طيبة.

الوِدّ بين قلبين

وضع المحامى الكبير أمام زوجته بطاقة دعوة لفرح فى فندق خمس نجوم، وسألها ألا تخذله لأن الدعوة من عميل جديد ـ 'حب مصنع للملابس القطنية ويريد أن يجاملة. فتحت الدعوة. قرأت اسم والد العريس سألته ماذا يعرف عن صاحب المصنع؟! الذى يعرف عنه أنه عمل سنين فى بلاد عربية ولدية مشكلة مع أصحاب المصنع الذى اشتراه، وابنه الذى سيتزوج تخرج فى جامعة بلد عربى. انشغل زوجها بعمله قرأت الاسم مرة أخرى تساءلت فى نفسها: هل هو ؟! أول من شعرت معه بخفقات القلب. بالفرح والترقب. أول من عرفت معه الحلم والألم لعدم تحقيقه. هل هو الحب الأول؟! كثرت أعداد الناس والأسماء أصبحت تتشابه. زوجها لا يحب الذهاب وحده إلى مثل هذه الحفلات وهى كثيرا ما تعتذر عن حضور الأفراح المزعجة التى يقيمها عملاؤه

من الأثرياء الجدد لأبنائهم فلا يذهب لن تخذله فى هذه الدعوة. ربما لأنها تريد أن تعرف هل هو؟! اننا لا ننسى الحب الأول فى حياتنا لأنه مثلا الحب الوحيد وبعده لا شئ أو لأنه أعظم حب إننا نتذكر الحب الأول لأننا نحب أن نتذكر تلك الفترة من حياتنا فى أول شبابنا وحيويتنا وآمالنا العريضة وكأنها ركبت أحد الاختراعات الغريبة التى نشاهدها فى أفلام الخيال العلمى لتعود بأبطال الفيلم إلى ماض من الزمان فى مرحلة تاريخية.

* * *

الزمن عام ١٩٥٩ وهى فى السنة الثالثة فى كلية أداب جامعة القاهرة تدرس علم الاجتماع طلب منها عمل بحث اجتماعى عن عاملات فى مصنع اختارت مصنعا للنسيج كان صاحبه صديقا لأبيها.. لم تخبره بحقيقة زيارتها، وأرسل معها موظفا ليطوف بها فى المصنع .. الات.. كثيرة تعمل ووجوه خلف الآلات وأياد تحركها صوت الآلات مزعج كيف تتحدث مع العاملات؟. وضعت يديها على أذنيها لتتفادى صوت الآلات وتفكر فى طريقة. فى تلك اللحظة وقعت عيناها على وجهه الأسمر وابتسامة على شفتيه لم تر سوى نصفها فشاربه الأسود الكثيف أخفى نصفها الآخر اقترب منها وسألها عن الغرض من زيارتها.. أشارت له أن يبتعدا قليلا عن ضجة الآلات، وكانت تريد أن تبتعد عن الموظف المرافق أخبرته بالغرض من زيارتها فقال لها أن الحديث مع العاملات فى المصنع لا ينفع، والأفضل أن تذهب إليه فى نقابتهم وسيدبر لها مقابلتهن. كانت النقابة

فى قلب القاهرة فى حى شعبى وكان هو سكرتيرا للنقابة. دبر لها مقابلة عاملات نسيج فى مصانع مختلفة على مدى شهرين أو أكثر كانت زياراتها للنقابة، ومقابلاتها للعاملات، وجلساتها معه بعد كل مقابلة لم تدر ما الذى جذبها إليه هل وجهه الأسمر الهادئ وبدنه الممشوق وابتسامته التى ترى نصفها بسبب شاربه؟! هل لشخصيته القوية المحبوبة وثقته فى نفسه؟! هل للأحاديث الجديدة تماما عليها، عن الاشتراكية والنظم الاشتراكية؟! كانت زياراتها للنقابة عند الغروب وقت ذهاب العمال والعاملات إليها. وكان هو لا يتركها تذهب إلى بيتها وحدها فى الليل. فى أول زياراتها كان يرسل معها أحد زملائه، ثم أصبح هو الذى يوصلها. فى الطرق يسيران جنبا لجنب، وفى الأتوبيس يجلسان متجاوران يتبادلا الأحاديث ليس فقط عن بحثها وعن الاشتراكية، وأيضا عن مشاعرهما.

انتهت من تحضير البحث لكن زياراتها للنقابة لم تنته فقد اتفقا على أن تزوره يوما فى الأسبوع ثم يخرجان معا ليوصلها إلى بيتها، ولتبرر ذهابها للنقابة أعلنت للعاملين والعاملات أنها ستعمل فى مجال عملهن بعد تخرجها ورحبن بها معهن، وكانت مقررة تحقيق كلامها. أو رغبتها أو حلمها أن تظل دائما معه ولأنها كانت الابنة الوحيدة لوالديها وصديقة والدها فقد أخبرته بإعجابها وميلها إلى عامل النسيج المثقف ورغبتها فى ربط حياتها به فى العمل.. و.. فهم والدها أنها شعرت بالحب لأول مرة، ونصحها بعدم ربط حياتها به ليس لأن الشاب مرتبه لن يكفل لها حياة جيدة كالتى تعيشها فيمكن أن يكافحا معا. لكن المهم أنه نشأ فى مناخ اجتماعى غير مناخها، وعاداته المعيشية غير عاداتها

وليس حاملا لشهادات تعليمية عالية، كما ستكون هى، وثقافته التى أعجبت بها ثقافة محدودة سياسية ونضالية، وأنها سترى كل هذه الفوارق بعد الزواج بعد أن تذهب نشوة الحب فماذا تفعل؟! لم تقتنع تماما بحديث والدها الذى تحبه وتحترم آراءه، ووعدته أنها لن تأخذ قرارا قبل دراسته من كل ناحية، ولم يمنعها من الذهاب إلى النقابة ومقابلة حبيبها أراد أن تفهم حديثه بتجربتها، وأن تحكى له كل شئ.

فى الأسبوع الأول من عام ١٩٦٠ وفى اليوم المحدد لزيارتها لحبيبها وجدت باب البيت القديم للنقابة مغلقا بالشمع الأحمر وبجانبه بعض جنود الشرطة. غاص قلبها. شاهدت عاملا وعاملة تعرفهما يبتعدان عن المكان لحقت بهما وعلمت منهما أن الحكومة قبضت على الشيوعيين فى البلد وأغلقت الأماكن المشتبه فيها سألتهما: وهل يوجد شيوعيون فى مصر؟! تبادلا النظرات وأخبراها بحقيقة لم تعرفها من قبل بل توجد منظمات شيوعية، بها شباب من مهن مختلفة وليسوا فقط عمالا، وقد أمر الرئيس عبد الناصر بالقبض عليهم ليلة رأس السنة سألتهما عن حبيبها تبادلا النظرات وأنكرا معرفتهما بأى شئ عنه ونصحاها بالابتعاد عنهم فى تلك الظروف ولأول مرة تشعر أنها مرفوضة بينهم.

حكت لوالدها ما شاهدته وسمعته وما شعرت به . بحكمة وثقافة شرح لها الخلط بين النظامين الشيوعى والاشتراكى فى التطبيق أو فى الثقافة العامة كما حدث لعمال مصر أو المثقفين منهم، وأيد النصيحة التى أغضبتها بالابتعاد عنهم.

بعد عدة أيام من ذلك الحادث ناولها والدها خطابا باسمها وجده فى صندوق البريد المخصص لهم فى العمارة خطاب بدون طابع بريد بمعنى أن شخصا ما أحضره بنفسه وبه كلمات مقتضبة «أنا بخير لا تذهبى إلى النقابة ولا تسألى عنى أرجو لك التوفيق فى حياتك ولن أنساك» والإمضاء بالحروف الأولى من اسمه بكت أمام والدها. قرأ الخطاب وقال لها أن هذا أفضل لها وآلا تحزن ولم يلعن الشاب الذى صدمها بل قدر موقفه واحترمه لأنه فهم أن الوفاق بينهما كان بين قلبين فقط وليس بين عقلين أو فكرين تعجبت من عبارة والدها ففى لقائهما الآخير، واثناء سيرها مع حبيبها فى الطريق مرا على مقهى وكان صوت المطرب الشعبى محمد عبد المطلب يصدح من الراديو بأغنية « صورتنا وإحنا سوا» توقفا ليستمعا قال لها أنه يود أن يلتقطا صورة معا لتكون أجمل صورة فى عينيه كما يقول عبد المطلب قالت بحماس الحب أن يذهبا إلى مصوراتى قريب فى الحال.. قال فيما بعد ولاحظت أنه ردد مع الأغنية كلمات « الود بين قلبين» «تنهد وهو يضغط على يدها، فهل كان يعنى ما قاله لها والدها؟!!!

نصحها والدها ألا تحكى حكايتها لمخلوق ربما كلامها يفهم خطأ وتكون العواقب ثقيلة!! فكرت فى أحاديث حبيبها عن النظم الاشتراكية وأنها ستسود العالم لأنها أروع نظم لحياة الناس وحكومة الثورة تسير على النظام الاشتراكى، فلماذا يقبضون على الاشتراكيين ؟! واذا كان الاعتقال للشيوعيين فقط فهل كان حبيبها شيوعيا؟!

أسئلة كثيرة شغلت تفكيرها فى تلك الفترة وبدأت تدرسها اجتماعيا. بالرغم من أن حكومة الثورة تسير نحو الاشتراكية فى مسألة تأميم المصانع وتوزيع الأراضى الزراعية على الفلاحين، وأشياء كثيرة فى الحياة المصرية، إلا أن مفهوم الاشتراكية لم يكن معروفا لدى معظم الناس، فمثلا كانت ابنة العسكرى تتزوج من ابن الضابط ويقولون فلتحيا الاشتراكية!.. رصدت تحولات كثيرة فى المجتمع، وبعد تخرجها التحقت بالعمل فى مركز جديد للبحوث الاجتماعية، وسافرت إلى بلاد اشتراكية أوربية. داوت السنين صدمة الحب الأول. وتناسته فى الحب الثانى واعتقدت أنها نسيته تماما فى الحب الثالث الذى توج بالزواج والإنجاب والتغيرات الاجتماعية التى حدثت فى المجتمع من السبعينيات إلى الثمانينيات والتغيرات الصارخة التى حدثت فى العالم كله فى التسعينيات وبعد أكثر من أربعين عاما تجد أنها لم تنس ذلك الحب الأول! فهل حقيقة هو صاحب دعوة الفرح أم الأسماء من كثرة الناس تتشابه؟!

* * *

إنه هو.. امتلأ بدنه قليلا وأصبح شعره الأسود الكثيف أبيض بنفس الكثافة. وشاربه الأبيض الكثيف أيضا أخفى نصف ابتسامته وهو يرحب بها وزوجها بجانب قاعة الاحتفال فى الفندق وسار معهما إلى منضدة ممتازة إلى أن أطمأن على جلوسهما أيقنت أنه لم يعرفها مع أن شكلها لم يتغير كثيرا، ولم تترك شعرها أبيض لم يظهر عليه أى ارتباك مثل الذى حدث لها ولم تر فى عينيه نظرة دهشة.. زوجها قدمها

للرجل بصفتها زوجته لم يقدمها باسمها أو بمركزها الوظيفى، فهل كان يتذكرها إذا عرف؟! معظم الرجال لا يتذكرون قصص حبهم القديمة أو أسماء حبيباتهم، وربما هى تذكرت اسمه لأن خطابه المحذر بقى معها سنين طويلة وربما تجده بين أوراقها القديمة ولم تنس شكله لأنه الحب الأول !! إنشغلت عن الرجل بالنظر إلى فخامة إعداد الفرح من بوفيه المأكولات إلى الأسماء المشهورة من فرق الترفيه ابتسمت فى داخلها، أصبح لا شئ مستبعدا فى هذا العالم. لا يصح أن تسأل كيف انقلب العامل الاشتراكى الفكر والنضال إلى رأسمالى ؟! فهل كان أحد يتخيل أن يتفكك الاتحاد السوفيتى وتنتهى منه تقريبا النزعة الشيوعية، وربما أيضا الاشتراكية؟! هل كانت تتخيل أن بلاد أوربا الشرقية التى كانت تتغنى بالاشتراكية تتحول عنها!! وبالاخص ألمانيا الشرقية الاشتراكية التى اندمجت مع شقيقتها الرأسمالية! لماذا تتعجب والعالم كله يتجه نحو الرأسمالية! لماذا تتعجب وصاحب الفرح يقدم لها «السيمون فيميه والكافيار» بنفس الطريقة البسيطة التى كان يقدم لها سندويتش الفول من مطعم شعبى!. لماذا تتعجب والعالم يتغير تغيرات صارخة.

وتتأمل صاحب الفرح عندما يأتى من وقت لأخر إلى منضدتهما ليرحب بهما ويتحدث باختصار عن عمله بثقته القديمة فى نفسه، وأنه كان عاملا فى مصنع للنسيج ولم تدر أنه كان أيضا يتأملها وسألها إذا كانت تعمل فذكر له زوجها اسمها ووظيفتها الاجتماعية لكنه لم يبد أى ملاحظة فتأكدت أنه لم يعرفها وأثناء غناء مطرب شعبى مشهور جاء وجلس معهما قال المطرب أنه سيغنى أغنية بناء على طلب والد

العريس وبدأ يغنى ، صورتنا وإحنا سوا. تشهد يا نور العين. على جمال الهوا والود بين قلبين، .

أسرعت ضربات قلبها قليلا. نظرت بعيدا. ربما لم تدرك سر حبها لهذه الأغنية إلا عندما ركبت مركبتها الغريبة التى أخذتها إلى زمن بعيد وسمعتها فى آخر لقاء لهما ولم تتحقق أمنيتهما فى التقاط صورة معا .. إنه.. لم تدر كيف إلتفت رأسها إليه والتقت عيناها بعينيه، وابتسامتها بابتسامته التى أخفى نصفها شاربه الأبيض.. هو أيضا تذكرها.

يوم رومانتيكى

قال لها زوجها أن صديقه الذى أهداهما بيته بين المزارع فى أول زواجهما عاد من الخارج وقابله، وسأله إذا أراد أن يقضى يومين او ثلاثة فى ذلك البيت مع زوجته، لم تسمع بقية حديث زوجها عن صديقه، وركزت على اليومين فى ذلك البيت قالت لزوجها أنها تود بحنينها إلى تلك الأيام الرومانسية أن يلبيا دعوة الصديق.. وافق تحت إلحاحها على أن يذهبا يوما واحدا.

البيت البعيد والمشوار إليه آثار ذكرياتها، نظرت حولها بحنين الذكريات. الزرع أخضر والشجر مورق، والوقت نهاية شتاء وبداية ربيع. تماما مثل الأيام الأولى لزواجهما. انتشت برائحة الجو.

البيت كما هو باختلاف بعض الأشياء المعدلة والأثاث الجديد، انتشت بوجودها فى المكان تساءلت فى نفسها: هل نرتبط بالأشخاص

ثم تربطنا بهم الأماكن والأشياء؟! ربما ارتباطنا بالأشياء هو ارتباطنا بالذكريات الحلوة التى تحملها لنا ذكريات تلك الأيام الأولى للزواج، رقصت أمامها فى نشوة قد نسيتها من زمن.

فتحت باب شرفة حجرة المعيشة جلسا صامتين وأمامها الأشجار فى الحديقة واصوات من العصافير مرحبة، وصوت يمامه توحد ربها، تذكرت جلستهما هذه من سنين بعيدة.

كان الجو العام فى البلد متوترا، هل سنبقى على ذلك الحال من احتلال إسرائيل لأرض سيناء؟!هل سنكتفى بتلك الحرب المتفرقة التى أطلقوا عليها حرب الاستنزاف؟! كان الجو متوترا، ورائحة الزرع مختلطة برائحة توقع حرب، وجلس كل منهماينظر للآخر لا يدرى ماذا يقول أو يفعل. لا يعرفان عاداتهما ولا رغباتهما، ولا كيف يتقدم أحدهما للآخر ملاطفا.. وكان التوتر العام اختلط بالتوتر الخاص بهما، لكنها كانت منتشية بوجودها معه. الان هى منتشية بوجودها فى المكان! قطع صمتها باقتراح ان يسيرا فى الحديقة.

سارت ويدها فى يده، عادت لها الفرحة بذكرى تشابك أيديهما، من زمن لم تتشابك أيديهما هكذا بدون سبب ضاغط! كأن يمسك يدها وهما يعبران طريقا، أو تمسك يده إذا تعثرت قدمه فى رصيف.

وجدا طعاما جاهزا فى الثلاجة الجديدة، نفس الطعام الذى كان قد أحضره لهما صديقه من سنين هزت رأسها متعجبة بجانب الراديو والمسجل ترك لهما شرائط تسجيل لأغان وموسيقى هادئة وحالمة كانت سائدة فى تلك السنين البعيدة وكانت تحبها، هل اشتكى زوجها

لصديق عمره مله من حياته الزوجية فأراد ان يعيد له تلك الذكريات الغالية؟! إنسان عاطفى .وضعت احد شرائط التسجيل فى المسجل، وعادت بهما أغانى الستينات إلى تلك الفترة الرومانسية فى حياتهما، وسألها كما كان يفعل فى ذلك الزمن «هل ترقصين؟!»

لم ينسيا تلك الخطوات الحالمة، وكأنهما لم يقتربا من بعضهما هكذا من سنين! تبادلا نظرات صامتة، وقرأت فى عينيه تلك الدعوة المحبة، وفوجئت بخفقات قلبها المترقبة فرحت بها.. إنهما يعرفان الآن عاداتهما. اعادت ذكرى النشوة الأولى نشوتها الحالية.

قالت «من زمن لم نكن هكذا..»

ابتسم صامتا نظرت إلى أوراق الشجر الخضراء خلال نافذة حجرة النوم موعدة بالثمار كما كانت فى تلك الأيام البعيدة. شعرت بحنين لها. كانت بداية قصة حبهما موعدة مثل أوراق الشجر فى الربيع فرد ذراعية العاريتين وسألها..«ماهى عيوبى»؟

قالت ضاحكة..«كثيرة».. سألها «وأهمها»! قالت «ذهبت عنك رقة معاملتك وحلاوة خصالك، حتى أننى كثيرا عندما انظر إليك أجد شخصا لا أعرفه»

سألها: «واليوم؟».. قالت أنت الذى أحببته وأعرفه»..

سألها: «هل أقول لك عيوبك؟»

قالت «لم أسألك. وأعرف أنها كثيرة فى نظرك وكلها مهمة وليست بى رغبة فى الدفاع عن نفسى ولا الخوض فى مشاجرة»

قال مبتسما «ليكن يومنا هادئا».

تبادلا ابتسامة ونظرة متعجبة.. كأن كلا منهما شاهد الآخر فى صورته الأولى منذ سنين مضت.. قام وتركها وحدها.

فى أزمات كثيرة يمر بها الزواج بين أى زوجين كانت تسمع عبارة من الزوجة أنها تريد أن تحتفظ بزواجها، لم تسمع واحدة تقول أنها تريد أن تحتفظ بزوجها!.. وكانت هى دائما فى كل الأزمات التى مرت بها فى زواجها تحاول أن تحتفظ بزوجها..

كانت تسمع وترى كثيرات من معارفها وصديقاتها يردن سعادة مفعمة بالمادة وتغيير أثاث بيوتهن وأماكن سكنهن إذا استطعن.. وهى حاولت طوال سنوات زواجها أن تصنع سعادة على مقاسها، أن تحتفظ ببيتها سعيدا وهادئا ولم تغير من اثاث بيتهما، إلا بعد أن تزوج الابن والابنة ومن مكافأة خروجهما إلى المعاش هى وزوجها، غيرا من نظام البيت وأصبح للزوج حجرة مكتب لعمله الخاص. خمسة وثلاثون عاما عمر زواجهما ولم يغيران أثاث البيت، إلا من عام مضى!

عاد زوجها بكوبين من عصير الليمون، تماما كما كان يفعل فى تلك الأيام البعيدة بعد لقائهما الحميم، وقال مبتسما مسترجعا لتك الذكرى.. «قطفته من الشجر»..

قالت :هل تذكر كلماتك هنا من زمن.. الحب مثل الشجر.

أكمل كلماته التى قالها «إذا زرعت حبا فى أرض طيبة تجنى حبا، وإذا زرعته فى أرض غير طيبة تجنيه شرا».. ضحك وأكمل كلامه «كنت أعطيك درسا وأحذرك»..

قـالت: «كـثـيـرا كنت أتساءل فى لحظات الضـيق والغـضب مـاهى أرضك التى زرعت فيها حبى. طيبـة أم غير طيبـة.. أم هى أرض تشرب ولا تنبت. تبتلع الحبة والمية ولاتنبت» اخذ وجهها بين يديه، وقبلها. سألها «جميلتى العجوز هل شعرت بتعب اليوم؟!»

-«فارسى العجوز فى داخلى اشعر أننى فتاة غضة.. وأنت؟»

- «لابد أن صديقنا وضع لنا شيئا فى الطعام لإعادة شبابنا!»

«إنها الذكريات القديمة الغالية. كنا نسيناها بانشغالنا بأعمالنا ورزقنا وتربية طفلينا ومشاجراتنا العقيمة لنفرج عن توتر أعصابنا».

-«لكننا كنا ننسى همـومنا فى اجـازاتنا وسـفـرياتنا مع الأهل والاصدقاء»

-وكنا أيضا ننسى ذكرياتنا».

ابتسم وهو ينظر فى ساعـتـه قـائلا:-«قبل دخـول الليل والطرقـات مظلمة».

كانت الشمس تختفى وراء الأشجار وتداعب أوراقها بألوان مختلفة عن ألوانها فى الصباح وأرتفعت أصوات من العصافير مودعة وصوت بلبل جاء متأخرا. نظرت إلى كل شئ حولها شعرت لحظة بانقباض، فيومها الرومانتيكى.. مضى..

الكبار ليس لهم أمهات!

كانت تقرأ في جريدة عندما تنبهت الى تاريخ اليوم وانه فى اليوم التالى عيد الام وعليها أن تشترى هدية لامها. عندما ذهبت الى الحى التجارى كانت مدركة انها لن تشترى هدية، لاول مرة منذ اختراع هذا العيد فى المجتمع لانه لم يعد لها أم، لكنها أرادت أن تكون وسط ناس مبتهجين ربما تنتقل عدوى الابتهاج اليها، لم تنتقل اليها العدوى وشعرت بغصة حزن فى حلقها من دموع ابتلعتها.

ادركت أن عيد الام هذا مثل فيلم هندى صميم. فيه الفرحة الغامرة والحزن الصامت والالم الصارخ، روعة الحب وتعاسة الحرمان من الحب، لقاء الاشواق وعذاب الفراق، القتل وكوارث الطبيعة. كل الفواجع والمباهج تجتمع فى فيلم هندى واحد وفى عيد الام ارتاحت لهذه المقارنة ابتسمت لمداعبة افكارها وتوجهت الى محل تجارى

كبير، زحام شديد فرصة لشراء هدايا بأسعار مخفضة للامهات والابلوات فى المدارس وللآباء أيضا حتى لا يحقدون.

اختنقت بزحام الاجساد، اختنقت بدموعها. لا يصح أن تبكى فى محل عام، فهى كبيرة. قالت لها صديقة يوما وهى تواسيها على فقد امها، الا تحزن هكذا فالكبار ليس لهم أمهات. لقد كبرت فجاة، فالانسان يظل صغيرا طالما يقول«ماما» ربما لهذا كثير من الازواج خصوصا هؤلاء الذين فقدوا امهاتهم ينادون زوجاتهم «ماما» حتى يبقى لديهم شعور الطفولة أو الشباب. وتعرف رجلا ينادى كل النساء والبنات العاملات فى ادارته بلقب«ماما»اعادت من جولتها السريعة بعد ان اشترت هدية لنفسها لترفع من روحها المعنوية. طلبت صديقاتها وسالتهن ماذا سيفعلن فى الغد. كل واحدة حكت مشغولياتها. ولنلتقى بعد «دوشة» يوم عيد الام. لم ينتبهن الى شعورها فى هذا العيد فالكبار ليس لهم أمهات. شعرت بحزنها صديقه فدعتها للذهاب معها فى صباح اليوم التاليالى حفل جمعية لرعاية الاطفال الايتام التى تساهم فيها.. قبل ان تقابل صديقتها ذهبت لتصفف شعرها، ربما هذا ينعش رأسها فتبدو فى مظهر مبتهج. كان الراديو يملأ جو المحل بأغانى الامهات، وسألت الرجل ان يخفض من صوت الاذاعة قليلا. تنبه الرجل انها فقدت امها قريبا فاغلق الاذاعة. قال كلمات مواسية و..

«اننا اصبحنا كبارا..» ابتلعت دموعها وابتسمت لتبدو فى رصانة من يفهم الحقيقة، فهى كبيرة بما فيه الكفاية ولها عملها الكبير ايضا الذى يشغلها عن الانتباه لمثل هذا اليوم، ربما لذلك لم يدعها احد من اخواتها

او اخواتها فى احتفالاتهم العائلية ولو من ناحية رد دعواتها لهم فى مثل هذا اليوم لسنوات فى حفل صغير كانت تقيمه للام الكبيرة.

سألت صديقتها ماذا تأخذ للأطفال اليتامى، شرحت لها انهم قد اشتروا هدايا للاطفال واذا أرادت أن تضع بعض المال فى صندوق التبرعات.. جلست. بجانب صديقتها وسط الاطفال والنساء المتبرعات والعاملات فى رعايتهم: قدم الأطفال الاغانى والتمثيليات وهم مبتهجون، سعداء بالهدايا. همست لها صديقتها:» هؤلاء الاطفال لا يتذكرون وجوه أمهاتهم وبعضهم لم يشاهدوهم، انهم مبتهجون وهم أطفال من المفروض ان يكونوا تعساء لفقدهم امهاتهم، فابتهجى«.. قالت مكملة كلام صديقتها: »والكبار ليس لهم أمهات«.

قالت صديقتها: »ها أنت قلتيها« ابتسمت وكادت ان تقول ان هؤلاء الاطفال لم يعرفوا امهاتهم ولايتذكرون حنانهن ولم يعيشون معهن عمرا طويلا لذلك لا يشعروا بتعاسة فى هذا العيد المسمى باسمهن.. فى عملها وجدت زميلة لها متحمسة لالغاء هذا الاحتفال فكثير من الاطفال والشباب فقدوا أمهاتهم ويشعرون بتعاسة وهم برون زملاءهم يحتفلون بامهاتهم، ولم تذكر شيئا عن تعاسة الكبار.

سألت زميلتها ماذا ستفعل اليوم، قالت لها ان زوجها سيدعوها على العشاء بمناسبة احتفال اليوم!.. فى منزلها أطلقت مشاعر حزنها المكبوتة، لا يوجد احد ينبهها انها كبيرة »عيب« هذا الذى تفعله. حقيقة: الكبار ليس لهم أمهات. لكن لديهم مشاعر يفهمونها ولابد ان يطلقوها حتى لاتدمرهم.. وأخيرا شعرت بارتياح.

رائحة الربيع

سمعت صوت بلبل يناديها، وزقزقة عصافير كثيرة، وصوت مناجاة يمامه، سيمفونية موسيقية من اصوات الطيور، ظنت انها تحلم حلما جميلا، بين النومْ واليقظة، فتحت عينيها ما هذه الحجرة النائمة فيها؟! تنبهت، نامت نوما عميقا حتى أنها لم تدرك انها جاءت مساء الامس إلى هذا المكان قامت، ازاحت ستائر الشرفة. فتحت بابها، استقبلتها روائح زهور ثمار البرتقال ياالله.. بالأمس عندما استقبلتها هذه الرائحة لم تتبين من الظلام انها لاشجار عديدة، يالروعة الطبيعة وتغيراتها، كل فصل له لون ،مثل التقلب من اليأس إلى الامل، من الحزن إلى الفرح، من الدمعة إلى الابتسامة من.. إلى من.. إلى.. من ..إلى.. نغمة موسيقية ابدية ونحن أبناء الطبيعة ندرك هذه التقلبات خرجت الى الشرفة لفت ذراعيها حول صدرها، ابتسمت، ناجت نفسها:

«هل يمكن ان ابتسم بإدراكي ابتسامة حقيقية. هل يمكن ان اضحك من اعماقي ضحكة حقيقية، هل يمكن ان افرح فرحة حقيقية؟! حقيقية مثل ظهور الشمس، ورياح الشتاء وروائح الربيع ونسمات الصيف؟! ام استغرقنا في زيف عصرنا فلا نجد الحقيقة إلا في الطبيعة؟! قال لها انهما التقيا على أرض صلبة من تجاربهما المبهجة والحزينة، وكانت رغبته ان تشاهد كل الاماكن التي ينتمي إليها قبل ان تجيبه على سؤاله. أو على الأصح طلبه، وهاهي جاءت معه إلى ارض الخالة التي يشاركها فيها بعد ان شاهدت مكان عمله. وزارت بيت اهله .وقابلت اصدقاءه، هل مازالت في ترددها الخائف؟! هل رائحة جو الربيع يمكن أن تضللها؟!أحيانا يمر الشتاء بامل في نشوة مستحيلة، وقلق مجنون على شئ ليس في إمكاننا تحقيقه، تفتقد وجوها بعيدة نفكر في الجديد والبحث عنه والكمال والبحث عنه. هذه اشياء نشعر بها أحيانا وتحتوي حياتنا اياما، وتمر، وبعد ان تهدأ الرغبة في النشوة المستحيلة، ويهدأ الشوق إلى الوجوه البعيدة، ويختفي القلق المجنون، وبعد أن يصبح الجديد الذي بحثنا عنه قديما.. ونعترف ان الكمال في عالمنا غير موجود. نلتفت إلى الذي بجانبنا ونتأمل وجوده، أو ربما حقيقة كنا نتأمل وجوده ونحن بعيدون نبحث عن الجديد أو الكمال ونحلم بمستحيلات الحياة.

همست لنفسها: «نعم.. لا اريد احدا غيره، احبه واحب وجوده..رائحة جو الربيع يمكن ان تحدث اشياء مبهجة وربما تكون ايضا مهمة، لن تضللني رائحة الربيع».

غيرت ملابس النوم ونزلت إلى الطابق الأرضى، وجدته مع الخالة يعدان طعام الإفطار، سألتها الخالة هل نامت نوما مريحا، هل اعجبها المكان؟! احتضنت الخالة وقبلتها، قال هذه إجابة معبرة عن اشياء جميلة.

صحبها فى جولة بين اشجار البرتقال المزهرة. قال انه يحب رائحة الربيع فهى تبشره بخير عظيم، وإن كان الخير من قبل فى ثمار الشجر، فالخير الان مضاعف بوجودها معه، فرحت بمجاملته وإن كانت مبالغة قالت إنها قرأت قصة قديمة عن شباب كان يحب كل ربيع فتاة جديدة إلى ان ارتبط بفتاة احبها حقيقة، ففكر فى حيلة ان يسافرا معا كل ربيع إلى بلد جديد، فيعطيه المكان الشعور بقصة حب جديدة.

قال: المكان الجديد يجدد مشاعرنا، وجو الربيع يوقظ عواطفنا.

سالته: وهل يستغل الجو والمكان لتجيبه؟!ابتسم، وفهمت ابتسامة المحبة الواثقة، ابتسمت، وفهم ابتسامتها بالايجابية الجميلة.

كانت الخالة تراقبهما بنظرات حنونة من شرفة بيتها إلى ان اختفيا بين الأشجار.

تلك الليلة

- هل تذكرين؟

سألها الرجل الذى جلس بجوارها على مقعد فى بهوالفندق. كانت قد شاهدته ينظر إليها وهو يسير امامها متجها إلى المطعم، ثم عاد وجلس بجوارها.

نظرت اليه مستفهمة ولم ترد .

قال:« أمضينا ليلة من ليالى رأس السنة معا. ليلة من تلك الليالى الجميلة البعيدة التى لا تنسى».

هزت رأسها إنها لاتتذكر.

قال: «اعجبنى اقتراحك لمشاهدة شروق شمس العام الجديد من فوق هضبة الأهرام تحمست لفكرتك العبقرية وذهبنا».

نظرت إليه بابتسامة فى عينيها وهزت رأسها.. نعم.. تذكرت، وإن بدا لها أن بدنه امتلأ قليلا وشاب شعر رأسه كثيرا.

قال:« ويومها اقترب منا شرطى فسألتك أى لغة أجنبية تجيدينها فقلت الفرنسية. أخبرت الشرطى أنك فرنسية مجنونة أردت مشاهدة الأهرامات فى أول ضوء للعام الجديد، وتحدثت معك بالفرنسية، وبحركة سائحية بارعة مددت يدك للشرطى وسلمت عليه وأنت تتمنين له عاما سعيداو ترجمت للرجل ما قلته، فتمنى لك نفس الأمنية وسار مبتسما وهو يتعجب لجنون الأجانب ».

ابتسمت للذكرى وسألته كيف تذكرها مع أنهما لم يلتقيا سوى تلك الليلة التى مضى عليها حوالى ثلاثون عاما!!.. أجابها كيف ينسى امرأة جميلة دعته لرحلة مجنونة وظلت تحدثه فى أمور فلسفية إلى أن سطعت الشمس!

أثارت الذكريات أفكارها.. أجل كانت ليلة لا تنسى فلقاؤهما جاء بصدفة غريبة، لقد جمعهما حفل ساهر، وجاء مقعداهما حول مائدة واحدة، كلاهما وجد نفسه وحيدا، لم تحضر صاحبته وصاحبها كذلك لم يحضر، وجدا أنهما الوحيدان بين الثنائيات حولهما. حدث بينهما التقارب اشتركا فى الرقص واللعب والضحك، ربما ليتغلب كل منهما على إحباطه، وربما جو الحفل دفعهما للمشاركة طوال الليل إلى أن اقترحت ذلك الاقتراح.

دغدغت مشاعرها تلك الذكرى البعيدة، وقالت إنها كانت تحتاج لهواء نقى ومساحة واسعة من الصمت، وكان حديثها الفلسفى ناتجا من

احباطها لعدم التزام صاحبها بوعده فى تلك الليلة. قال: «فكرت أنك تفسدين جمالك بأحاديث فلسفية، وربما لذلك هرب منك صاحبك تلك الليلة حتى لا تقلبى بهجتها غما، ومع ذلك وجدتنى مجذوبا إليك».

سألته لماذا لم يتصل بها بعد تلك الليلة مع أنه كتب أرقام تليفونها؟!

قال إن أحداثا متلاحقة حدثت له بعد تلك الليلة، فقد كان مرشحا لبعثة دراسية فى الخارج، فوجئ بأمر السفر بعد أسبوعين، وكان عليه الجرى لتحضير أوراقه واحتياجات السفر، ومن ناحية أخرى ذهبت إليه صاحبته وبكت أسفة أنها خذلته تلك الليلة فقد منعها والدها من الخروج. «كانت علاقة حبنا فى شهورها الأولى متأججة لكنها غير راسخة.. توالت الأحداث بسرعة غريبة، تزوجتها وصحبتها معى.. بعد دراستى عملت فى الخارج سنين طويلة».

ثم سألها هل تزوجت من الرجل الذى خذلها تلك الليلة؟!

قالت إنه خذلها بعد ذلك فى أشياء كثيرة ووعود جميلة. تركته وتزوجت فيما بعد رجلا يحترم وعوده وكلمته.

قال: لا انكر أننى فكرت فى تلك الليلة أن القدر منع صاحبتى من الحضور وكذلك منع صاحبك ليجمعنا فى قصة حب جديدة.. الم تخطر على بالك تلك الفكرة؟!»..

ابتسمت .. سألته هل ندم على زواجه؟

قال: «فى أول الأمر خفت من قرار تسرعى لكن للأمانة كانت صحبة محبة وصبورة، وتسير بنا الحياة للآن بلا مشاكل شديدة.»

ثم سألها هل زواجها كان بالعقل أم بالحب؟

قالت: «الاثنان.. العقل كان دافعا، والحب كان مداويا لجروح قديمة»

قال ضاحكا: «أنت مدينة لى.. وأنا مدين لك بقبلة ليلة رأس السنة التى لم نتبادلها فى تلك الليلة»

ضحكت وهى تنظر فى ساعتها. قاما . تبادلا التحية، وسار كل منهما فى اتجاه حياته.

(٢)

مذكرات بنت

من

زمن فات!

التجديد مهم فى الحياة. هكذا قالت أستاذة علم النفس لزوجها المهندس. إبتسم إبتسامة متسائلة، ماذا تريد لتجديد حياتهما هذا العام؟! فقد تعود أن يسمع منها هذه العبارة مع بداية أجازتها الصيفية من الجامعة، ليرتب اجازته السنوية من عمله، ويسافران فى رحلات إلى الخارج والداخل. سألها أين رتبت للسفر هذا العام؟ قالت ضاحكة إنهما سيكونان ضيفان على أختها وأسرتها فى بيتهم الجديد فى الساحل الشمالى. سألها ألم تقتصد من دخلهما هذا العام لرحلة المفاجآت؟ قالت: إن شقتهما تحتاج لطلاء جديد. رحب بفكرتها وقال ممازحا: إن هذا يليق لاستقبال القرن الواحد والعشرين.

وهى تفرغ دواليب وأدراج من محتوياتها ليسهل نقلها من مكان إلى مكان، وجدت ظرفاً قديما به نوتة حمراء فى ركن داخلى من أحد أدراج مكتبها، فتحت النوتة، ابتسمت وهى تقرأ فى أول صفحة «مذكرات مراهقة» قلبت الصفحات سريعا وجدتها بحبر وخط غيرهما فى العنوان. لابد أنها كتبت العنوان بعد سنين من كتابة تلك المذكرات. قلبت الصفحات إلى الصفحة الأخيرة، قرأت آخر جملة فيها:

«لن أكتب مذكراتى حتى لا تقع فى يد أحد ويفهمها خطأ». ثم تاريخ بخط رفيع (١٩٦٨/١٩٦٩) زاد فضولها، لماذا كتبت هذه العبارة..

وبدأت تقرأ..

مذكرات مراهقة

اليوم السابع

سيأتى يوماً الرجل الذى أحبه.. ربما يأتى يوم الأحد أو الاثنين أو الثلاثاء.. الذى أعرفه أنه سيأتى يوما..

كانت أختى الكبيرة تتغنى بهذه الكلمات مع أغنية إنجليزية قديمة حالمة من البرنامج الموسيقى.. سألتها عن بعض معانى الكلمات قالت حالمة كأنها لا تسمعنى.. سيأتى يوماً الرجل الذى أحبه..

تعجبت من حلمها بالمجهول مع أنها تعرفه ومخطوبة له أيضا.. كدت أقول لها إننى أحب مثلها.. إحمرت وجنتاى.. خفق قلبى، لم استطع أن أبوح لها بهذا السر. منذ شهور وأنا أشعر بحاجتى إلى صداقة مختلفة عن صداقتى للبنات زميلاتى وصديقاتى فى المدرسة وفى الحى الذى نسكنه.. منذ خطوبة أختى للرجل الذى تحبه، بدأت أنظر إلى كل الشبان الذين أقابلهم، أى منهم يصلح أن يكون حبيبى أو كما

تقول صديقاتى «بوى فرند»، وظهر فجأة كأنه هو الآخر كان يبحث على، كأنه شعر بما شعرت به منذ شهور وبدأ يبحث.

منذ أسبوع وأنا ذاهبة مع صديقاتى فى الصباح إلى المدرسة، كانت شلة شبان فى طريقهم إلى مدرستهم أيضاً، واحد منهم لكز آخر بشدة فكاد يقع علىّ لولا أنى ابتعدت بسرعة، ووقعت حقيبتى على الأرض.

«أولاد سفلة»، هكذا قلت غاضبة، قفز من وسطهم وضرب الذى كاد يقع علىّ، وانحنى على الأرض حمل حقيبتى، أمسكها ونظر إلىّ..

«مش كل الأولاد سفلة»، هكذا قال.. هدأ غضبى فجأة وأنا أنظر إلى وجهه وبالذات إلى عينيه، أخذت منه حقيبتى.. قالت صدقتى ناهد:

«متشكرين يا على». وقال وهو ينظر إلىّ: «أحنا إلى متأسفين»، تركناهم وسرنا.. قالت صديقتى ناهد «على مؤدب عمره ما عاكس واحدة فى الشارع»، سألتها وأنا أحاول أن أخفى اهتمامى: «مين على» قالت «صاحب أخويا»، وانتهزت فرصة عبورنا الطريق ونظرت خلفى، كانوا يسيرون خلفنا، التقت عينى به، لم أر أحداً سواه كأنه الوجه الوحيد فى الشارع المزدحم، وبدأت عينى تبحث عنه كل صباح، أحياناً تحييه ناهد، ودائماً ينظر إلىّ حتى وناهد تحييه، يرد التحية إلىّ فى اليوم الرابع بدأت أشعر بغيرة من ناهد، لأنه يذهب عندهم فى البيت.. فهل يحبها.. أو هل هى تحبه.. تغلبت على اضطرابى وغيرتى فى اليوم الخامس وسألتها: «هو على من أولاد الحتة»، قالت: «ساكن بعيد شوية»، وساعات يمر على صاحبه اللى جنبنا، يظهر اليومين دول دايما يمر عليهم الصبح، خفق قلبى لهذه الملاحظة، وسألتها: «ناهد.. أنت

بتحبيه»، نظرت إلى متعجبة، وقالت: «أنت عارفة أنى بحب قريبى»، وابتسمت وهى تقول «خدى راحتك»، لكنه اختفى فى اليوم السادس والسابع.

ولاحظت أننى، فى هذين اليومين كنت سارحة، ساهمة.. صامتة.. مع أنى فى الأيام السابقة بمجرد أن آراه فى الصباح أشعر بانتعاشة وأكاد أطير وسط صديقاتى، أتحدث كثيراً، والتفت كثيراً إليه، أنا أحب وأحلم مع أختى وأغنى معها فى اليوم السابع هذا.. سيأتى يوما الرجل الذى أحبه.

أول قبلة

يوم مهم جداً فى حياتى، أعتقد أنه من الأيام العظيمة فى حياة كل فتاة عندما تتعرف على قبلة الحب. ذهبت إلى عيد ميلاد ناهد، كنا ننتظر هذا اليوم بفارغ الصبر.. عزمت «على» من أجلى. وأيضاً قريبها الذى تحبه ويحبها. أمها سيدة عصرية ترحب بعمل الحفلات ووالدها لا يمانع أن يرقص ابناؤه واصدقاؤهم فى البيت، أحضرت لناهد هدية بكل ما اقتصدته من مصروف شهرين، أنا أحبها، أشعر أننى أحب كل الناس، وكان أول حديث طويل بينى وبين «على».

عرفت أنه يعيد الثانوية العامة ليحصل على مجموع كبير ويدخل كلية الطب، تخيلت على طبيبا وزادت فرحتى..

كانت أول مرة أتأمله عن قرب.. يرتدى ملابسه حسب الموضة، ألوان زاهية يصفف شعره حسب الموضة يطيله قليلاً.

رقصنا كل الرقصات، كنت أقفز كأنى أطير، أول مرة أرقص مع شبان.. كنت دائماً أرقص مع صديقاتى فى المدرسة أو فى منازلهن.. لم أكن أتصور أن الألحان الراقصة يمكن أن تعطينا كل هذه المشاعر الحلوة بالحيوية والحياة جرينا إلى المائدة.. إلتهمنا الحلوى، كان فى طبقى قطعة من التورتة.. قال «على» إن قطعتى كبيرة.. قطعت منها وأنا أضعها فى طبقه، انحنى وأخذها فى فمه، خفق قلبى وأنا أكل من الشوكة التى أكل منها.

بدأنا نلعب لعبة «عروستى» فقال أخو ناهد أننا كبرنا على ألعاب العيال، شعرت بزهو من كلماته، قمنا نرقص، لم يجلس أحد منا طوال ساعات الاحتفال، عدد لا حصر له من الاسطوانات، كل من عنده اسطوانة راقصة أحضرها. الساعة العاشرة مساء نزلنا كلنا دفعة واحدة.. منتشين فرحين.. اقترب منى «على» وقال سيوصلنى، جريت من وسطهم معه حتى لا يصاحبنى أحد سواه.

فى الطريق أمسك يدى.

لو كان منزلى يبعد عن منزل ناهد آلاف الأميال؟

وقف معى ننتظر المصعد، لم يكن أحد فى المكان، القبلة حدثت فجأة، لا أدرى كيف، قبلنى خلال شعرى.. نصفها على خدى.. نصفها على أذنى خلال شعرى.. زادت دقات قلبى.. شعرت بالدماء فى وجهى.. سخونة فى وجهى.. لم أنتظر المصعد، جريت صاعدة على السلم، إلى شقتنا، لم أنظر فى وجه أحد عندما فتحوا لى الباب، خيل إلى أن والدى وأخواى ينظرون إلىّ، نظراتهم تسألنى..

تفضحني.. شعرت أن كل شيء عبارة عن عينين تنظران إلي..
جريت إلى حجرتي المشتركة مع أختي.. حمدت ربنا أنها غير
موجودة.. أغلقت الباب بالمفتاح، وقفت أمام المرآة، اتحسس موضع
القبلة أضم كتفي بذراعي، أضم نفسي بذراعي.. أدور راقصة في
الحجرة، لم أغسل وجهي كعادتي قبل أن أنام، حتى لا أغسل مكان
شفتيه أردت أن تبقى القبلة مكانها، لو لم أكن في الرابعة عشر، لو لم
يكن في السابعة عشر، لو كنت أكبر ومنتهية من دراستي، ولو كان هو
كذلك، وسألني الزواج كما فعل «ماهر» مع أختي.. تضايقت جداً لأني
في الرابعة عشرة.

خطيب أختي

عندما عدت إلى منزلنا وجدت «ماهر» خطيب أختى. جاء اجازة قصيرة فهو مهندس ضابط فى الجبهة، القيت حقيبتى على الأرض وجريت إليه فرحة.

احتضننى وقبلنى على وجنتى. لابد أنها توردت لأنى شعرت بسخونة فى وجهى.

هل مازلت أحلم أنى أحبه!

هو قريب لنا من بعيد، أعجب به منذ صغرى أراقبه وهو يتحدث ويقول النكت وأضحك.. كنت أحب الذهاب إليهم من أجله، وكان يداعبنى وأرد مداعباته بمعاكسات، كنت أعتبر مداعباته ومعاكساتى نوعا من الإعجاب المتبادل، وكلما كبرت زاد هذا الإعجاب إلى أن بدأت أحسبه حبا. كان لا يهمنى حديثه الهامس مع أختى أو جلوسه

بجوارها عندما يعزمنا إلى السينما، رأيته يوما يمسك يدها. كان جالسا بينها وبينى.. فسألته أن يمسك يدى أيضاً.. أظن يومها غضبت أختى لكنها لم تظهر لى هذا حتى لا تدخل فى مناقشة وجدت أننى صغيرة عليها. وذهب «ماهر» إلى الجبهة، بدأت زياراته تقل.. وزاد سرحان أختى.

إلى أن كان يوم. قال أبى إن «ماهر» خطب اختى وحدد يوما للحفلة.. انسحبت من وسطهم وبكيت فى حجرتى المشتركة معها.. هى كبيرة.. متعلمة.. تعمل.. لها كل المؤهلات وأنا لا شىء، بجوارها، فهل يخطبنى أنا! سألتنى اختى متعجبة لماذا أبكى. قلت لها خلال دموعى أنها ستوحشنى أخذتنى على صدرها وقالت لى ألا أفسد فرحتها بدموعى. لأنها تحبه. وتمنت لى أن أتزوج يوما الرجل الذى سأحبه، نظرت إليها بدهشة، كنت أشعر أحياناً أنه ليس لى فقط وليس لها فقط. بل لنا كلنا لأننا نحبه، قالت لابد أن أفرح لأن الحجرة ستكون لى وحدى، وفعلاً فكرت فى الحدث الجديد أن تكون لى حجرة وحدى.. لكن لم استطع أن أخفى غضبى من «ماهر».

أما هو فلم يغير معاملته لى، وزاد فى التودد إلى بهدايا صغيرة تفرحنى.. بدأت أفهم أن الحب بين اثنين شىء آخر غير المداعبات والمعاكسات، وبدأت أبحث عن هذا المجهول إلى أن ظهر لى «على» وأصبحت معاملتى لماهر عادية مثل أخ أحبه. لكن «على» لم يقل لى أنه يحبنى للآن، أصبح يسير معنا إلى المدرسة كلما قابلنا فى الصباح، وأحيانا ينتظرنى فى موعد خروجنا ويسير معى إلى المنزل، نختار

أطول الطرق لنسير معا مدة أطول، وأحياناً تكون معنا «ناهد» صديقتى المقربة.

ملأت أختى البيت بالنشاط والحيوية وهى تعد طعام الغداء وتزوق الأطباق، لقد استأذنت من عملها قبل موعد الخروج الرسمى، عندما أخبرها «ماهر» بوصوله، سمعت حديثهما عن برنامج الليلة، سيذهبان إلى منزله لتزور أمه، لماذا اليوم تفكر فى زيارة أمه، سيذهبان بعدها إلى سينما.. متى يحدث هذا لى؟ وشعرت بغيرة..

الحزن في الحب

اتفقت مع صديقتى «ناهد» و«على» أن نذهب إلى السينما، أول مرة أخرج فيها بموعد مع «على». قلت لهم فى البيت أننى ذاهبة إلى السينما مع ناهد وصديقاتنا فى المدرسة. اليوم الجمعة، حفلة الساعة العاشرة. تقابلت مع ناهد. وكان «على» ينتظرنا أمام باب السينما. لم نسلم عليه باليد.. وقفت ناهد فى الصف لتقطع تذكرتها وتذكرتى. وقف «على» خلفها ليقطع تذكرته بجوارنا.. وقفت أتفرج على صور فيلم «قصة حب» هذا الفيلم الذى كتبت عنه المجلات والجرائد، أشهر رواية حب فى العصر الحديث. تحدثت عنها معظم زميلاتى تحدثت عنها ناهد ونحن عائدين يوما من المدرسة وكان معنا «على». واتفقنا أن نذهب نحن الثلاثة إلى هذا الفيلم فكان لابد أن نرى حديث الناس هذا. حتى لا نكون متخلفين عن العصر.

جلست فى الوسط بين «على» و«ناهد» وكنت فرحة لأول مغامرة فى الخروج مع على فرحة لأنى أجلس بجواره، ضحكنا طوال فترة الجريدة وتحدثنا. خرج على وقت الاستراحة. اشترت ناهد لنا شيكولاته، ثم بدأ الفيلم.

بعد فترة أردت أن أبكى فقلت هامسة لناهد. أن الفيلم مثل الأفلام الهندية فلكزتنى بكوعها لأن يدها كانت على عينيها تمسح دموعها، وكانت فتيات أمامنا أيضاً تبكى. شعرت بخوف. تخيلت نفسى مريضة. أو «على» مريضاً. وخفت. قلت له إننى خائفة، فأمسك يدى. قال شاب يجلس خلفنا لزميله «والله ولا الأفلام العربى.. العالم ده مجنون»، وضحكا، كانت فرصة لى أن أضحك، تركزت مشاعرى فى يدى التى يمسكها «على» يضغط قليلا بيده على يدى تخف الضغطة. أعد أصابعه بصوت هامس.. يبتسم، كنت أشغل نفسى بشىء آخر غير الفيلم.

بعد انتهاء الفيلم سرنا إلى محطة الاوتوبيس، سألتنى ناهد لماذا قلت أنه مثل الأفلام الهندية. قلت لها إن الأفلام الهندية تجعل الناس تبكى أننى لم أكن أتصور أنه بهذا السخف.

سألنى «على» غاضباً، لماذا أقول «سخف». فقلت - الحب كما أتخيله مرح. ورقص. وتفتح. لا أتخيله بالمرض واليأس والموت.

قالت ناهد - قصص الحب لا تخلو من الحزن. قال على، وقد ارتسمت على وجهه جدية إنه أحيانا يكون هناك معوقات لقصص الحب. ثم نظر إلى وقال: «واللا أنت متعرفيش الحب».

قلت خجلة وقد أحمرت وجنتاى. «الحب الذى اتخيله كما وصفته».

وعدت إلى منزلنا وأنا أشعر أننى مريضة، أكره هذا الحزن فى الحب، أريد أن أجرى مع «على» فى حقول واسعة تحت الشمس إلى أن نتعب فنستلقى على الأرض ضاحكين، أريد أن أرقص معه رقصات مرحة طوال الليل أم أنا لا أعرف الحب؟!

«الأستاذ علاء»

اليوم اهتم أخى «هشام» بتوضيب حجرة المكتب. واطمأن على أنه يوجد عندنا شاى. قال إن مدرس الفلسفة وعلم النفس سيزوره. فهو فى الثانوية العامة.. أدبى. سأله أبى هل سيأخذ دروسا خصوصية وقال «هشام» بزهو إن الاستاذ «علاء» صديقه فاستراحت قسمات وجه أبى. قال «عادل» أخى الأكبر إن الحديث مع دارسى علم النفس ممتع. وسألته أختى «عايدة» إذا كان لديه مشكلة عاطفية فقال «عادل» إنه سيحدثه فى أمور عامة. واستهوت الفكرة أختى وقررت هى الأخرى استقباله. وأنا فرحت للزيارة ربما استطيع أن أسأله متى يقول الشاب للفتاة إنه يحبها. وجاء الاستاذ «علاء» شاب ربما يكون فى عمر أخى الأكبر وجهه مبتسما لفتت نظر أبى هذه المظاهرة المحتفلة بالقادم فجاء هو أيضا ليرى أيه الحكاية. فى لحظة بدأ فيها «عادل» يسأل عن

انفصال الابناء عن الآباء وتركهم المنزل وخوضهم فى الحياة معتمدين على أنفسهم كما فى أوروبا.

قال الاستاذ علاء: الطفل يبدأ فى الانفصال عن والديه وترك المنزل منذ خروجه من رحم أمه وانفصاله عنها. ثم يتطور انفصاله فى سن المراهقة فيزداد خروجه من المنزل، ثم وهو شاب ينفصل تماما ليكون أسرة. وينجب وهكذا.

قال عادل: ورأيك فى أن يعيش الشباب منفصلين عن الآباء مثل أوروبا؟

قال الاستاذ علاء: إذا نظرنا إلى هذا دون اعتبار للظروف الاجتماعية والاقتصادية عندنا فأنا أؤيد انفصال الابناء عن الآباء فى سن مبكرة. الابن عندما يترك منزل والديه يمكنه أن عتمد على نفسه فى الاختيار. والقرارات. والتطور العاطفى لا يحدث بنضوج إلا بالاعتماد على النفس.

قال «هشام»: إنه قرر فعلا أن يدخل جامعة الاسكندرية حتى يعيش حياته معتمداً على نفسه.

وتنحنح أبى معلنا عن وجوده. وقال إن الأبناء ينبهرون بكل ما هو مستورد. دون النظر إلى واقع حياتنا، فإذا انفصل الابناء عن الآباء فى السكن أين يسكنون وعندنا أزمة مساكن. ومن أين يصرفون على تعليمهم ومعيشتهم. والذين معهم شهادات لا يجدون العمل بسهولة أو بسرعة.

وقال الاستاذ «علاء» إنه ذكر ظروف حياتنا قبل تحبيذه للفكرة، وسأل أبى عن رأيه، وجدت أبى محرجا وربما غاضبا بالرغم من هدوء وجهه. واردت أن انقذه من إجابة حرجة، فسألت الاستاذ «علاء» عن رأيه فى الحب.

قال مبتسما: إنه أجمل وأبهج شىء فى الحياة. التفتوا كلهم إلى. لم أنقذ أبى بل زدته غضبا. واستأذن وترك لنا الحجرة. لم يجد الاستاذ «علاء» حرجا وتحدث عن عاطفة الحب البناءة. والهدامة. لم أفهم معظم كلامه لكنى أعجبت به جدا. وقررت أن أدرس الفلسفة وعلم النفس وأدخل كلية الاداب حتى استطيع أن أتحدث مع الاستاذ «علاء». شعرت أننى كبيرة وعندى معلومات.. نمت وصورته فى عينى.

حيرة أفكارنا

فى الصباح وأنا ذاهبة إلى المدرسة مع «ناهد» قابلنا أصدقاء «على» كانوا يرتدون ملابس الفتوة لم يعرفونا فى أول الأمر أو نحن لم نعرفهم بمنظرهم الجديد. لم أجد «على» بينهم ولم أهتم، تقدم منا أحدهم وهذه الطاقية أو البيريه فى يده مقلوبا على طريقة الشحاتين وسألنا أن نعطيه قرشاً. قالت له ناهد «احترم البدلة اللى لابسها»، فقال لها «طيب بلاش قرش هاتى بوسة». أحمر وجه ناهد غضبا، قال أحدهم «تعالى يابنى دول تبع على صاحبنا». قال آخر «وليه مايكونوش تبعنا أحنا كمان؟»، وضحكوا قلت غاضبة «أحنا مش تبع حد ياكلب».

قال «الله.. الله حنلبخ ياالله ياولاد نطوق»، كانوا خمسة والتفوا حولنا فى دائرة فوقفنا، داروا حولنا وهم ممسكين بأيديهم حتى لا نخرج من الدائرة.

ضربناهم بحقائب كتبنا، وضحكوا، صرخت ناهد، جاء رجلان فرقوهم، وأحد الرجلين ضرب ولد منهم على وجهه وقال له نفس كلمات ناهد أن يحترم الملابس التى يرتديها، تراجعوا. وسرنا صامتين نرتجف من الغضب، قالت ناهد إنها ستخبر «على» بما حدث ليؤدبهم، قلت «إذا كان على اختارهم أصحابه لازم يكون زيهم وأنا مش حكلمه»، قالت ناهد «على أخلاقه أحسن منهم».

سرنا فترة صامتين، سألت ناهد «يا ترى علم النفس بيقول إيه على الأولاد اللى عاكسونا بالطريقة البايخة ده» .رمقتنى بنظرة متسائلة وقالت «أنا ملاحظة أن تفكيرك تحول لأدبى». قلت «أنا عايزة أدرس علم النفس».

قالت غاضبة «أحنا مش متفقين أننا ندرس فى علمى مع بعض، أنت مش كنت عايزة تدخلى كلية الطب مع على». قلت «أنا كنت عايزة أدرس فى علمى علشانك وكنت عايزة أدخل كلية الطلب علشان على. لكن لما فكرت علشانى أنا لقيت أنى عايزة أدرس أدبى». صمتت ناهد، لم ترد.

الحقيقة أنا لا أدرى ماذا أريد. لم أخبر ناهد عن اعجابى بحديث الاستاذ «علاء» مدرس الفلسفة أو عن إعجابى به شخصيا، فهل أنا اختار قسم أدبى أيضاً من أجله؟! سألت ناهد إذا كانت غضبت منى. ابتسمت.، وقالت إنه مازال أمامنا بقية السنة لنفكر ونقرر وربما هى التى تدرس أدبى وأنا أدرس علمى و«على» يذهب إلى البحـــرية وضحكنا.

رحلة الربيع

اعترض والداى على ذهابى مع أختى «عايدة» إلى رحلة بحثت عنها لزيارة السويس لم يستطيعا الاعتراض على ذهابها هى بسبب وجود «ماهر» خطيبها هناك. أحببت «عايدة» وهى تصمم على وجودى معها وأنها قد كتبت أسمى لأنى لابد أن أشاهد بعيونى. كنت فرحة، خائفة، استقبلنا مجموعة من الضباط كان «ماهر» بينهم، أول مرة أرى مدينة السويس. وكانت صامتة إلا من أصواتنا واصواتهم. المنازل خالية مضروبة. أخذونا فى جولة نتفرج على الدمار فى بورتوفيق كنت أصغر الزائرين وبكيت. ضابط صغير بنجمة واحدة ربت على ظهرى، سألته كيف يعيشون وسط هذا الدمار وهل يبكى مثلى. ابتسم وقال «تعودنا على المنظر»، أشار الى شجرة صغيرة بجانبنا أوراقها جديدة بها زهور. وقال الربيع يجد مكانه حتى بين الدمار. أعطانى زهرة،

سألته ماذا كان منظر المدينة قبل أن تدمر، حكى لى عنها كأنه يحكى عن جنة أو حلم رآه يوما. عرفت اسمه «سمير». ونحن نتناول الغداء معهم. جلس بجانبى وحدثنى عن حياتهم، بهرت بحديثه، أعجبنى وجهه الأسمر وشعره القصير ويده القوية وهى تربت على كتفى كتب عنوانى ليراسلنى، وعدت وأنا أكاد أطير من الفرحة والخوف. أشياء كثيرة شعرت بها فى نفسى.

فى طريقنا إلى المدرسة فى الصباح حكيت لناهد عن رحلة يوم الجمعة. وقلت لها إننى أشعر كأنى كبرت فجأة. أشعر بمسئولية لا أدرى لأى شىء لكنى أشعر بها بهرت ناهد بحديثى وشعرت بانبهار فسرت مزهوة. رأيت «على» يرتدى بلوفر أحمر وشعره الذى يصففه حسب الموضة ويطيله قليلاً. لم يعجبنى. قالت له ناهد بانبهارها إننى كنت أمس فى الجبهة. نظر إلىّ بدهشة وسألنى أسئلة سريعة كيف ذهبت، ماذا رأيت. حكيت مرة أخرى بإطالة من خيالاتى، وفى الفصل قالت ناهد الخبر والتفت البنات حولى لأحكى.

حكيت للمرة الثالثة منذ الصباح، سألتنى واحدة ماذا فعلت مع الضباط وهل عدت بقصة أحمرت وجنتى كدت أحكى عن «سمير» نظرت إلى «ناهد» وهزت رأسها ألا أحكى، بعد ذلك سألتنى «ناهد» كيف سأحب شابا بعيداً عنى وهل الخطابات ستكفى وماذا سأفعل مع «على» قلت لها أن «على» لم يقل لى إنه يحبنى. وأنا لم أعد أحبه. وبدأت أحلم «بسمير». والزهرة التى أعطاها لى وضعتها فى علبة من علب ملبس الأفراح احتفظ بها فى درجى الخاص.

علم النفس والحرية

قال الاستاذ «بسيونى» مدرس اللغة العربية إن علم النفس سبب فى فساد الشباب. فحكاية منح الشباب الحرية وعدم العقاب هذه أدت إلى فساده. الشباب الذين يطيلون شعورهم ويرتدون الملابس الخليعة والفتيات اللاتى يتصرفن تصرفات مشينة ويرتدين ملابس فاضحة بحجة الموضة. وأن هذه الحرية المفسدة هى التى صنعت ما يسمون أنفسهم بالهيبيين فى أمريكا وللأسف شبابنا يقلدونهم مثل القرود والسبب فى كل هذا الفساد علم النفس والأسرة التى تسايره وتعطى أبناءها الحرية.

شعرت بغيظ فظيع منه وصعدت الدماء إلى رأسى. رفعت يدى ووقفت دون أن يأذن لى بالوقوف والكلام وقلت: «أستاذ بسيونى» أنا أعارضك. علم النفس ليس سببا فى فساد الشباب والحرية ليست سببا

لأن الأسرة إذا أعطت شبابها الحرية فهى تعطيه المسئولية وليس الفساد. وبالعكس الأسرة التى لا تعطى شبابها الحرية فهى تدفعه إلى الفساد لأنهم يتصرفون من وراء ظهر الأسرة بحرية أكثر ويمكن أن نقول عن هذه التصرفات فساد. علم النفس برئ منها. أما هؤلاء الهيبيون الذين لا يعجبون حضرتك فهم جماعة يبحثون عن السلام لأن بلادهم لا تعرفه».

نظر إلىَّ الأستاذ «بسيونى»، باهتمام وقال «مَنْ علمك هذا الكلام».

قلت: «قرأته فى المجلات والكتب». قال: «وحركة الهيبيين اليست فساد هذه التصرفات التى يقومون بها. ومن قال لك إنهم يبحثون عن السلام» قلت: «لأنهم يعيشون فى مجتمع فيه تفرقة عنصرية وفيه حروب ظالمة جبرية مثل حرب فيتنام أليس الهيبيون هم الذين يطالبون بوقفها». قال: «أنت تتحدثين كلام كبير لا تفهمين معناه». قلت: «أنا أفهم معناه جيدا لأنى سألت أبى. وسألت أخوتى الكبار وقالوا لى ما قلته الآن». قال «إجلسى» صفقت لى البنات وخبط الاستاذ «بسيونى» على المنضدة طالبا السكوت، وبدأ فى درس قواعد اللغة العربية.

بعد الحصة قالت لى «ناهد» إنه إذا كان استمر فى مغالطته كانت سترد عليه مع زميلة لنا بأمثلة عن بنات زميلاتنا تضيق عليهن أسرهن ومع ذلك يفعلن أشياء لا يمكن أن تفعلها فتاة تعطيها اسرتها الحرية.

بداية الاختلاط

تعجبت من تقرب «منال» إلى، فهى تعتبرنى صديقة لها منذ عارضت الاستاذ «بسيونى» ودافعت عن حرية الشباب والهيبيز. وربما منذ ذهبت إلى الجبهة فى رحلة الربيع وحكيت عن زيارتى. «منال» زميلتنا فى الفصل من عائلة غنية تتمتع بحرية مطلقة. معتزة بنفسها لدرجة الغرور، لا يهمها حتى الناظرة. متكبرة علينا. تعتبرنا صغيرات لأنها صاحبة تجارب. وبالتالى معظمنا يتحاشى الحديث معها، ولأنها تعرف أن «ناهد» صديقتى المقربة فقد تقربت إليها أيضاً. وعزمتنا لنأخذ الشاى معها فى النادى الكبير الذى تشترك فيه. ولما كان اليوم خميس فقد وافق والداى على خروجى للفسحة على أن تكون المذاكرة يوم الجمعة. ويذكروننا دائماً بالامتحانات! بدأت مغامراتى مع «ناهد» منذ ركوبنا الاوتوبيس ثم «الميكروباص» سألنا أكثر من مرة عن محطة

النادى. وجدنا «منال» تنتظرنا بجوار الباب ومعها فتاة أخرى. سرنا معهما إلى حديقة بها مناضد كثيرة ومقاعد، فالجو بدأ فى الدفء. اتجهنا إلى منضدة يلتف حولها فتيات وفتيان. عرفتنا بهم وأفسحوا لنا مكانين بينهم. وأكملوا احاديثهم وأشركونا معهم كأننا نعرفهم من سنين وليس من لحظات ووجدنا أنفسنا «ناهد» وأنا مندمجين معهم كأننا لسنا غرباء وفكرت لحظة أننا ظلمنا «منال» فى تكبرها علينا. وربما تكبرها لأنها تسمع همسات من البنات عليها وعلى حريتها وملابسها، فأخذت هذا السلوك فى التكبر على الجميع. أخذنا الشاى والحلوى. وأخذوا منا وعدا على أن نزورهم كثيرا واقترحت علينا «منال» أن نشترك فى النادى معهم.

وعدنا. «ناهد» وأنا منتشيين بالصحبة والوقت الذى أمضيناه. وفكرت بصوت مرتفع مع «ناهد» أننا لابد أن تكون لنا شلة كبيرة. ولتكن شلة «منال» لقد سمعت أخى «هشام» يقول يوما من تعاليم علم النفس أن من أهم شىء فى سن المراهقة أن يندمجوا فى مجموعة كبيرة من الجنسين حتى تكون نواة للاختلاط بالمجتمع الكبير فيما بعد.

أبي .. يدافع عن الفتيات!

سألتني أمي بلهجة آمرة أن أرتدي ملابسي وأذهب معها لزيارة إحدى قريباتها. فرفضت لأن عندي مذاكرة.

قالت بلهجة ساخرة غاضبة: لماذا الآن عندي مذاكرة ولو كانت إحدى صديقاتي أو أختي هي التي سألتني الخروج لخرجت مباشرة!

قلت لها: إن كلامها صحيح وإنني لن أذهب بعد ذلك لزيارة قريباتها أو صديقاتها من الجارات لأنني أصبحت لا أطيق هذه الأحاديث النسائية ولم تعد تروقني.

حقيقة كنت أذهب معها في هذه الزيارات وكانت اختي أيضاً تذهب لكنها انشغلت بعملها وخطيبها وأنا أيضاً كبرت. أمي مازالت تعاملني على أني طفلة تصحبني إلى أي مكان وهذا يضايقني. أنها لا تريد أن

تفهم أنني الآن كبيرة ولى صديقات وأصدقاء أيضاً أفضل تمضية وقت فراغى معهم.

سمعت أمى تشكينى لأبى وسمعته يدافع عنى ويوافق على اعتراضى فى خروجى معها فأعجبنى. وقال لها إنه لا يحب أن يغلق تفكير بناته على مثل تفكير النساء الجالسات فى البيوت وتذكرت له موقفا مشابها آثار إعجاب أختى وإعجابى عندما تحدث يوما مع أمى وافهمها أن ليس عنده حكاية أن البنات تخدم الصبيان هذه التى موجودة فى عائلتها. فهو لا يريدنى وأختى أن نقوم على خدمة ،عادل وهشام، فكل فرد فينا لابد أن يخدم نفسه. وهو يعلمنا ليس لنخدم إخواتنا وبعد ذلك أزواجنا لكنه يعلمنا لنخدم انفسنا فى الحياة ولنؤدى رسالة. وأن حكاية التفرقة هذه لا يقرها، هذه التفرقة التى فى عائلتها.

وقد ثارت أمى يومها بسبب ذكر عائلتها كثيرا فى المقارنات. وقال أبى لها يومها إن الزمن تغير وإن كل فرد لابد أن يعتمد على نفسه. وكان ذلك الحديث بسبب تدليل أمى للولدين وبداية أوامرها للبنتين أن نلبى طلباتهما.

جاء أبى إلى حجرتى المشتركة مع أختى وكنت قد بدأت فى القراءة والمذاكرة. سألنى إذا كنت سأذاكر حقيقة. سألنى ألا أخيب ظنه وثقته. نظرت إليه بامتنان وعاهدت نفسى أن أتفوق وألا أخيب ظن هذا الرجل الكريم الذى يدافع عن حق الفتاة فى الحياة.

خطاب غير عادى

خرجنا من المدرسة بعد حصتين مراجعة، وعدت قبل الظهيرة للمنزل، وجدت «عادل» أخى الأكبر فى حجرة المكتب يمسك بخطاب مفتوح يلوح به إلىّ، وهو يقول مبتسما إنه لى. سقط قلبى فى ساقى وارتعشتا ولا بد أن وجهى أمتقع لونه. خطفته من يده وجريت إلى حجرتى مع أختى لأقرأه. خطاب من مقاتل. «سمير» أرسل لى أخيراً. لم يكتب لى شيئاً خاصا، كلماته عن حياته هناك. ويسألنى ماذا أفعل فى المذاكرة. لم يكتب «حبيبتى» كتب «عزيزتى» وهذا ضايقنى. وكانت امضاؤه «أخاك». فلم يعجبنى الخطاب وإن كنت قد تأثرت به. لكنى فكرت بسرعة أن هذا يعطينى القوة لأتشاجر مع «عادل» بسبب فتح خطاب خاص بى. لقد اعطيت «سمير» عنوان منزلنا حتى لا يُفتح فى المدرسة بوساطة الضابطة. فهل فى المنزل كلهم ضابطات! وأليس

لى الحق أن يكون لى شىء خاص بى. دخل «عادل» إلى الحجرة وأنا مازلت أفكر. وقبل أن يتحدث تشاجرت معه. فقال إننى لابد أن أحمد الله لأنه هو الذى استلم الخطاب وليس أبى أو أمى. لأن أبانا مهما كان تفكيره سيقلق من شىء كهذا وسيحقق فى الأمر. وأن أمى ستتشاجر وتقلب الدنيا لأن ابنتها الثانية تعرف شخصا أيضاً. هدأت قليلاً من حديث «عادل» الهادئ وكنت أظن أنه سيتشاجر سألنى عن «سمير» هذا فقلت له أننى قابلته يوم زيارتى مع أختى للجبهة. فنصحنى «عادل» ألا أشغل نفسى بأى شىء الآن سوى المذاكرة لأن العلم هو الذى سيفتح لى طريق الحياة وليست العواطف وأن هذه الأشياء يمكن أن تأتى فيما بعد. ولم تعجبنى نصيحته. وأيقنت أنه سيقول لأختى الكبيرة لأنها صديقته. لم أهتم لأن الخطاب ليس به أى شىء. وانتظرت فترة ما بعد الغداء عندما ذهبرا ليناموا فى حجراتهم وطلبت «ناهد» فى التليفون قلت لها عن الخطاب الذى فتحه أخى. واهتمت أن تسمع ما فى الخطاب وماذا قال أخى وأصيبت صديقتى بخيبة أمل عندما قرأته لها. وقالت لى ألا أرد عليه. لكنى كنت أفكر فى عنوان آخر يراسلنى عليه حتى لا يفتح أحد خطاباتى. حتى يكون لى شىء خاص، وقالت لى «ناهد» عن فكرة جهنمية، أن أرسل له عنوان أقرب مكتب بريد واستلم خطاباتى من هناك.

أسئلة سخيفة

بعد أن أرسلت عنوان مكتب البريد القريب من منزلنا إلى «سمير» ليـرسل لى هناك. بدأت أذهب كل أسـبـوع أسـأل عن خطاباتى. لم تعجبنى نظرة الرجل الموظف هناك وهو يسألنى اسئلة ليس له الحق فى أن يسألها. مثلا من أين سيأتى الخطاب الذى أنتظره. من الذى سيرسله. أو أين أسكن حتى يرسله إلى عنوانى ويبتسم ابتسامة بايخة. اسئلتـه ونظراته ضايقتنى كـثيراً خصوصاً يوم أن أعطانى خطاب «سمير» وقال مبتسما «مش تقولى إنه من الجبهة». وخيل إلىّ إنه فتح الخطاب وقرأه ثم أغلقه. فى كل مكان أجد ضابطة المدرسة التى تفتح الخطابات!

وتضايقت أكثر عندما وجدت خطاب «سمير» عادى. كتبت له الرد فى نفس اليوم مـخـتصراً. وإننى نجـحت واصبـحت فى ثانيـة ثانوى

مؤكدة أننى كبرت. وبعد أن كتبت له متى سيأتى فى إجازة شطبت الجملة. وطلبت منه ألا يكتب لى لأنى لا أجد مكانا يرسل خطاباته على عنوانه ولا تفتح. وأننى لن أذهب إلى مكتب البريد ليضايقنى رجل سخيف بأسئلته. والحقيقة أنا تضايقت لأنه لم يكتب لى أنه يحبنى أو متى سيأتى. وبعد أن أرسلت الخطاب شعرت بضيق وجلست صامتة اقرأ المجلات أو أتفرج على التليفزيون وظهر الضيق فى تصرفاتى وجلستى الوحيدة ولم أشعر بهذه السعادة لقدوم الاجازة الصيفية وأحلام المصيف، أو حتى لنجاحى. ولما سألتنى أختى «عايدة» ماذا بى بكيت ولم أجد مفرا من اعترافى لها بمعرفتى بسمير وكل ما حدث بيننا فى خطابات بسيطة إلى أن كتبت له ألا يرسل إلىّ لذلك أشعر بضيق. سرحت أختى قليلا أو تغيرت ملامح وجهها. أو تضايقت، لابد أن الكبار يتضايقون عندما يعرفون أن الصغار أيضاً يقعون فى الحب لكنها بسرعة عادت إلى حالتها الطبيعية وابتسمت وقالت لى إننى أخطأت فى حكاية مكتب البريد هذه. لأنى عرضت نفسى للسخرية، والأفضل أن أكتب له مرة أخرى ليرسل لى على عنوان البيت. ووعدتنى أن تعزمه عندنا إذا حضر فى اجازة وقت وجود «ماهر» خطيبها. ليتعرف على اسرتنا ونجعل هذه الصداقة معروفة للجميع وارتاحت نفسى.

أول مغامرة

دق جرس التليفون وكنت بجانبه بالصدفة. رفعت السماعة. سألت. من؟ قال «سمير» وكادت السماعة أن تقع من يدى. سألته هامسة كيف عرف نمرتنا. قال إنه أخذها من خطيب أختى بحجة أنه سيطمئنها عليه. وسألنى أن يقابلنى. قال إنه سينتظرنى الساعة الخامسة عند ناصية شارعنا ووضع السماعة قبل أن أعترض. اضطربت. هل أقول لأختى. ربما تعترض أو تنزل هى تحضره إلى بيتنا وسأموت من الخجل إذا فعلت هذا. طلبت «ناهد» صديقتى وقلت لها عن المحادثة فوصفت لى كازينو على شاطئ النيل نذهب إليه. وقلت لها تأكيدا للمغامرة أننى سأقول إننى ذاهبة إليها. لم اضطرب أو افرح أننى سأرى «سمير» لكن لأنى سأخرج أول مرة اقابل شابا وحدى. مغامرة. الساعة الخامسة وجدته على ناصية شارعنا اتجهت إلى شارع جانبى. جاء

ورائى وكانت سيارة أجرة تمر أوقفها وركبنا قلت له على عنوان الكازينو قبل أن أسلم عليه. هناك جلسنا وسألنى هل حضرت إلى هذا المكان من قبل وتضايقت من سؤاله. كان فى المكان بعض الشبان يرتدون قمصانا ملونة ويطيلون شعورهم قليلا. معهم فتيات يضحكون كلهم. لعنهم «سمير» لأنهم يعيشون حياة مرفهة لا يشعرون بشىء مما يدور فى مدن المواجهة ولا الحياة التى يعيشها الضباط والجنود هناك. شعرت بتعاطف معه وقلت لابد أن يذهب كل هؤلاء الشبان فى رحلات إلى الجبهة. ضحك وقال إن هذا ليس حلا. المهم أن يشاركوا معهم وليس أن يتفرجوا عليهم. لم أعرف بماذا أجيبه. وقال إننى مازلت صغيرة. فتضايقت مرة أخرى وقلت إننى لست صغيرة. ضحك وقال إننى مازلت صغيرة لأن أمامى سنين طويلة فى الدراسة. وقال إنه يعزنى مثل أخته الصغيرة. قلت كأنى أنفى تهمة أننى أحبه عن نفسى «أنت كمان زى أخويا». لم أحدثه عن اقتراح أختى عزومته فى منزلنا لأنه ضايقنى. نظرت فى ساعتى وكانت السابعة قلت لابد أن انصرف. أوصلنى إلى ناصية شارعنا. سألنى هل يرسل لى قلت له بسرعة. لا، حتى لا يسبب لى مشاكل. سألنى هل أنا غاضبة منه، قلت بسرعة: لا. تركته وكنت فعلاً غاضبة.

لقاء بلا خوف

عزمتنى «منال» أن أمضى معها طول اليوم فى النادى الذى تشترك فيه. لم يعترض والداى. من وجهة نظر أبى أن أعتمد على نفسى وأتعرف على الناس فى جو اجتماعى محترم مثل النادى. ومن وجهة نظر أمى أن «منال» أهلها ناس طيبين.. والطيبين فى نظرها هم المقتدرون الذين لهم إيراد من أرض أو مبانى ويشتركون فى نادى ويذهبون إلى الاسكندرية على الأقل شهرا كل صيف.. جلست مع «منال» وحدنا لفترة.. وحكت لى عن الشاب الذى تحبه فى سنة أولى فى كلية التجارة.. وحكيت لها عن «سمير» ومقابلتى له وحديثه معى.. سألتنى عن عمره قلت حوالى الأربعة والعشرين.. شهقت وقالت طبعا أنا بالنسبة له صغيرة وحبى لشخص كبير وأيضا لا يبادلنى الحب خطأ وقعت فيه وعلى أن أنساه حتى لا أمضى أيامى مهمومة.. وكنت فعلا

قررت أن أنساه واقطع صلتى به وفرحت أن رأيا يوافقنى. جاء صديقها ثم تبعه آخرون.. المجموعة التى كنت قد تعرفت عليها فى زيارتى المرة السابقة وسألونى لماذا لا أحضر كل يوم.. بعد أن تاولنا الغداء دفع كل منهم حسابه أردت أن أدفع لكن «منال» قالت أنها تعزمنى.. جلسنا فى الحديقة.. فتحت «منال» حديثا عن الحب حتى تقنعنى أن ما عرفته ليس حبا.. بل شيء مثل الذى نقرأه أحياناً فى الروايات العالمية. وقال أحد الشبان وهو فى أولى اداب قسم إنجليزى.. أن فى عصرنا المادى لم يعد هناك مكان للحب الخيالى أو حب الحرمان والبعد عن الحبيب.. فالفتى يمكنه أن يرى فتاته ويحدثها ويقول ما يشعر به. لم يعد فى عصرنا من يقول الشعر فى حبيبته ولم يعد أيضا ما تصوره لنا القصص الخيالية عن العاشق الوفى روميو بطل مسرحية شكسبير.. كنت أستمع إليه مبهورة بحديثه وزاد اقتناعى فى الدراسة الأدبية لأنها ستفتح لى بابا كبيرا إلى عالم أريد أن أعرفه.. قالت فتاة.. أن التدريب على الحب لابد أن يكون من أهداف الأسرة الحديثة أن يشجعوا الحب حتى يكون سلام فى العالم. صفر أحد الشبان وقال «هيبى». قال صديق «منال» واسمه «أحمد» أن بعض الآباء ينظرون إلى الحب على أنه مأساة كبرى وانحراف بالشباب فيعملون على إعاقة مثل هذه العلاقة.. وهم بلا شك مدفوعون برواسب المجتمع متخذين دروسا من المآسى الخلقية. والجنسية التى تدخل تحت ستار الحب وتنشر فى الجرائد.

كان يوما جميلا هذا الذى أمضيته وسط صحبة بلا خوف.

مشاريع الصيف

سألت أبى لماذا لا نشترك فى النادى الذى تشترك فيه «منال» صديقتى وعائلتها.

قال: سنعمل اجتماعا عائليا لنقرر ماذا سنصنع فى الصيف والاجازة. واجتمعنا. قلت فكرتى. وقال أبى إن اشتراكنا فى هذا النادى سيكلفنا مصاريف كثيرة ولن نستطيع أن نمضى شهرا فى الاسكندرية كما نفعل كل صيف.

قالت أمى إنها ليست من هواة نوادى وأن فسحتها الوحيدة التى تستمتع بها فى هذا الشهر لأنها تحب الاسكندرية والبحر وهذا التغيير يجعلها تتحملنا بقية العام.

قال «عادل» إنه يفضل النادى لكن مادام شهر المصيف يسعد أمى فهو يختاره وأن كان لن يمضيه معنا هذا الصيف لأنه سيسافر إلى

ألمانيا شهور تدريب صيفية مع زملائه فى كلية الهندسة وأنه اقتصد مصروفه لهذه الرحلة وأبى سيساعده بمصروفه فى شهور الصيف.

قال «هشام» إنه لا يهتم بموضوع النادى هذا لأنه مشترك فعلا مع اصدقائه فى نادى حكومى لا يكلف كثيرا.. وأن النادى الكبير الغالى الذى أريد الاشتراك فيه ليس إلا مناظر. قالت «عايدة» إنها ليست متعودة على مجتمع النوادى وتفضل شهر المصيف لأنها أيضا من هناك تستطيع أن تشترى أشياء أحسن وأرخص لجهازها وملابسها.

نظر إلى أبى نظرة حنونة لأنى بقيت وحدى فى جانب وخسرت الاستفتاء. وقال: ما دامت لى صديقة قريبة فى هذا النادى استطيع أن أذهب معها كلما أردت. قلت له: إنها تعزمنى دائما وهذا يخجلنى ولابد أن اعزمها أيضا. فوعدنى أن يعطينى مصروفا زيادة يوم ذهابى إلى النادى واشترط عليها أن اعزمها. تعلقت فى رقبته وقبلته.

وقال «هشام»: إنه أيضا يطالب بحقه فى زيادة المصروف وقام ليذاكر فهو ما زال يمتحن فى الثانوية العامة.

سألتنى أختى بعد الاجتماع لماذا أريد الاشتراك فى هذا النادى. هل تعرفت على شاب هناك وماذا عن «سمير». لويت شفتى وقلت لها إننى قررت قطع علاقتى به. وحكيت لها عن مقابلتى له وحديثه.

تغيرت ملامحها لحظة ثم ابتسمت وقالت إننى أخطأت فى هذا التصرف لأنى لم أعرف تماما شعوره نحوى. ونصحتنى ألا أفعل هذا إلا إذا تأكدت من شعور الشاب فليس من المعقول أن أخرج كل يوم مع

شخص جديد لأن هذا ليس ملائما لفتاة. سألتها كيف أعرف شعوره دون مقابلة؟

قالت: إننى ربما أتعرف على شاب فى النادى وأكون معه فى المجموعة. ثم أمامى سنتان وأذهب إلى مجتمع اختلاط كبير فى الجامعة ثم فى العمل. ووعدتها ألا أقابل شابا وحده إلا بعد أن أتأكد من شعوره. قالت: ألا أتعجل فى الاختيار.

إننا جيل يزعجنا الانتظار

سافر أخى «عادل» إلى ألمانيا وسافرنا نحن إلى الاسكندرية. فرحت لأن والدى اختارا شقة على شاطئ المندرة لأنى سأكون قريبة من صديقتى «منال» فى المعمورة. أول يوم وصلنا جاءنا عمى وابنه «محمد» وهو فى مثل عمر «هشام» أخى ومنقول إلى الثانوية العامة. قال عمى إن ابنه يريد أن يعمل هنا فى الاسكندرية فى دكان والد صديق له فترة الصيف. سيعمل مع صديقه ويأخذ أجره بالاسبوع. قال أبى إن هذا شىء جميل أن يعمل الطلبة فى الاجازة حتى يتعلموا الاعتماد على أنفسهم.. نظر عمى إليه نظرة جانبية غير مرحبة وقال إن ابنه يريد أن يعمل «بياع جيلاتى». قفز «هشام» من مقعده وسأل «محمد» إذا كان من الممكن أن يجد له عملا معه. قال عمى «ناقص تشيلوا جرادل وتسرحوا على البلاج بالكازوزة» قال محمد «أحسن ما

نقضى طول اليوم عاطلين، قال عمى لأبنه لابد أن يفهم أن الاجازة معناها راحة للبدن وليس معناها أن يعمل وقال إن بعمله هذا سيختلط بأوساط لا يريده أن يخالطها. وقال عمى إنه ضد تشغيل الطلبة فى عطلة الصيف. سأله أبى لماذا فهى فرصة أن وجدت للشباب وأن هناك أشياء كثيرة فى البلد تحتاج إلى أيدى الطلبة العاطلة فى الاجازة. شرح عمى وجهة نظره وهى أن الطالب سيأخذ على عمله أجرا فى الغالب أكثر من المصروف الذى يأخذ من والديه. فإذا ما انتهت فترة العمل الصيفية سينخفض دخله. وهنا ربما يتذمر على والديه.

وربما أيضا يترك تكملة دراسته ويعمل. لأنه يجد أنه يكسب بدون أن يأخذ شهادة وربما يحاول أن يعمل ويدرس فى نفس الوقت فلا يوفق فى هذا أو ذاك. ضحكنا كلنا من مخاوف عمى وقال «محمد» لأبيه ألا يخاف أنه لن يطلب منه مصروفا زيادة بعد الصيف. فقال عمى محتدا أنه سيختلط بأوساط الباعة وصبيانهم ومن المعروف أن سلوكهم منحط والفاظهم سوقية. ضحك أبى وقال له إن «محمد» لن يعمل مع مثل هؤلاء الباعة لأن تعامله مع الشارين وليس مع البائعين. وقال أبى إنه لا يمانع أن يعمل أخى أى عمل يكسب منه حتى يتعود الاعتماد على نفسه. وسأل عمى هل كان يوافق أن يسافر ابنه إلى أوروبا. قال: طبعاً. وأكمل سؤاله وماذا لو كان عمل هناك فى غسيل الأطباق. ضحكنا. قال أبى إن الأشياء التى يشتغلها ابناؤنا فى الخارج ولا يخجلون منها من باب أولى أن يعملوها فى بلدنا. وتساءل عمى لماذا الشباب يتعجلون الأشياء مع أن كل شىء سيأتى بالترتيب. قال «هشام» ضاحكا: إننا جيل يزعجنا الانتظار.

على بلاج المعمورة

ارتديت المايوه وفوقه فستان مفتوح من قماش البشكير وقلت إننى سأذهب إلى صديقتى «منال» فى المعمورة. طلبت أمى أن أصحب أخى «هشام» معى حتى لا أتوه.. قلت بغضب «أننى لست صغيرة» وقال «هشام» إنه مشغول وذهبت. لم أته عن المكان الذى وصفته لى «منال» وجدتها مع أخوها «سعيد» ومعهم فتيات وشبان يجلسون فى الشمس وتحت شمسية وتعرفت بهم. كانت بيننا أحاديث مختلفة. مرت بنا ثلاث فتيات شاورن للجالسين «هاى». قال أحد الشبان واسمه «محسن» «أهلا بالعملة الصعبة». قال له سعيد «أنت مش قد دول» سألتهما ماذا يقصدان فقال لى «سعيد» إنهن لا يصاحبن إلا مستوى معين من اصحاب الهدايا الأجنبية. قال «محسن» «كل البنات دلوقت ببلوزة تشتريهم أو حتى بعلبة سجاير أجنبية». شتمته رأيت «منال» ساخرة

وهى تضحك. صعدت الدماء إلى رأسى وقمت لأنصرف. وجدت نفسى بدلا من أن اسير فى اتجاه الانصراف اتجهت إليه وصفعته على وجهه.

وسط وجوم الجميع لم يتصرف. وقامت «منال» مسرعة أخذتنى من يدى وهى تقول: «لننزل إلى البحر». افادتنى المياه فى إطفاء الثورة فى داخلى ولحق بنا سعيد. عندما خرجنا من المياه كانت المجموعة قد ذهبت. جففت جسدى فى الشمس وقلت لهما إننى وعدت أمى أن اتغدى فى المنزل.

أصرا على أن يوصلانى بسيارة والدهما. قال «سعيد» وهو يسوق أنه أعجب بى عندما صفعت «محسن» لأنه أهاننا كلنا. وأنه كان سيتصدى له لو كان قد رد على صفعتى. ضحكت «منال» وقالت إنه معقد لذلك لا تحب الفتيات أن تصاحبه لأن أول جملة يقولها للفتاة أنه ليس عنده نقود ليحضر لها هدايا. قال «سعيد» إنه يدين الفتيات ايضا لأن معظمهن أصبحت نظرتهن مادية. وقال إنه شعر أن العاطفة مازالت بخير عندما صفعت «محسن». لثانى مرة يقول إعجابه بى. وأنا لا أنكر إعجابى به. هو فى إعدادى طب. لكنه لم يلتفت إلى الا اليوم. فهل إذا صفعت كل يوم شاب على بلاج المعمورة فى نهاية الشهر سيحبنى! شعرت بحيوية وأنا أترك السيارة وأشير لهما وسرت كأنى أطير وألوح بحقيبتى فى الهواء.

أسرع شهر يمر

هذا هو الاسبوع الأخير لنا فى الاسكندرية. أسرع شهر يمر بنا فى العام كله. كنت لا أصدق أمى عندما تقول هذا. وأقول إن الشهور متساوية تقريبا فى عدد الأيام والأسابيع. فلماذا يمر شهر المصيف أسرع منها. تبينت هذا الشعور أخيراً. لأنى كبرت قليلا وأصبحت لدى مجموعة من الصحاب مستقلة عن الأهل الأقارب. ولأنى كنت كل يوم تقريباً أرى «منال» وأخاها «سعيد» أمضى معهما اليوم فى المعمورة. وعزمتهما مرتين على الغداء فى شقتنا. رحبت بهما أمى كثيرا. واعتذرت أكثر عن كل شىء فى الشقة المفروشة. إعتذرت عن المقعد والطبق والشوكة. والشقة كلها لأنها فى المندرة بالرغم من أنها تطل على البحر.

لم أخبر أختى بإعجابى الجديد لأنها حذرتنى يوما ألا أبدى عواطفى قبل أن أعرف شعور الطرف الآخر. والحقيقة أنا لم أظهر عواطفى لسعيد. كنا معا دائما فى شلة وكنت أفكر أيضا فى هذه الكلمات التى قرأتها فى المجلات وسمعتها عن حب الشاطئ أو حب فترة الصيف الذى ينتهى بانتهائها وفى الاسبوع الأخير قررت المجموعة أن نذهب إلى ملهى ليلى لنرقص. كنت متأكدة أن والدى سيعترضان خصوصا إذا طلبت مزيدا من النقود حتى أدفع حسابى. قال لى «سعيد» أننى معزومة ولم يعترض والداى لأنهما أعجبا ووثقا فى «منال» وأخيها وسمحت لى أختى باستعمال بعض أدواتها للماكياج ولم يتساخف أخى «هشام» ويصر على أن يأتى معنا. كانت كل الظروف غير معاكسة فزاد شعورى بالسعادة. صفر «سعيد» وهو يتأملنى وقال إننى جميلة. وكان هو أيضا جميلا. كان يرتدى بدلة كاملة. أول مرة آراه ببدلة كاملة وأول مرة يرانى بفستان وماكياج بدأت أعرف لماذا اليد ترتجف من لمسة يد معينة وليست أى يد. والعين لا تمل النظر إلى وجه معين. وخفقات القلب لا تعطى شعورا معينا بالدغدغة والفرحة إلا بوجود شخص معين. لم يحدث هذا مع «على» ولا مع «سمير». فهل أنا أحب لأول مرة. المكان كان ساحرا بالأضواء والموسيقى. من سعادتى خيل إلى أننى أحلم.

تصرف صديقة

«ناهد» صديقتى لم آرها منذ شهرين. لقد سافرت مع أهلها إلى بلطيم طوال هذه المدة.

احتضنتها عندما وجدتها أمامى وأنا أفتح باب شقتنا. قالت لى إنها جاءت لتأخذنى معها إلى مشوار صغير. حينما سألتها إلى أين همست أنها ستقابل شابا تعرفت عليه فى المصيف وتريدنى أن آراه وحتى لا تكون وحدها. قالت لأمى إنها تريدنى معها وهى تشترى بعض الأشياء. ارتديت ملابسى سريعا ونزلنا. قالت إن لديها نقود وستأخذ سيارة أجرة.

حكت عن «هانى» وكيف قابلته ومضت أسعد أيام معه على بلاج بلطيم. عرفته بأهلها. وتعرفت بأهله. كانت تحكى بحماس وفرحة حتى أنى نسيت أن أسألها وماذا عن قريبها الذى كانت تحبه. وحكيت لها

عن أوقاتى السعيدة أيضا فى الاسكندرية وعن إعجابى بسعيد. وتهلل وجه ناهد لظهور شابين مقبلين علينا واحد منهما يطيل شعره ويرتدى ملابس ملتصقة جدا بجسده النحيل. والآخر يقص شعره فى اعتدال. عرفتنى بهما. «هانى» الشاب المعتدل فى المظهر. و«محسن» صديقه كنت أجلس فى مواجهة «ناهد» حتى يجلس صديقها بجانبها.. وطبعا أخذ مكانه وجلس الآخر بجانبى. فجأة شعرت بخوف واضطراب. ماذا لو رآنى أحد. ماذا لو عرفت أمى.. لن تصدقنى بعد ذلك.. ماذا لو جاءت أختى بالصدفة وأنا لست على موعد مع هذا الخنفس أو الهيبى الذى يجلس بجانبى حتى أدافع عن نفسى أو عنه. وزاد خوفى عندما فكرت فى سعيد ماذا لو هو رآنى الآن. قال «محسن» وهو ينظر فى ساعته «نلحق نروح سينما حفلة ستة». قلت بسرعة «أنا مقدرش أتأخر». قالت ناهد. «نروحك هم عارفين أنك معايا قولى أنك جيتى عندى البيت». تضايقت منها وزاد اضطرابى قلت «روحوا أنتم».. قال محسن وهو يضع ذراعه على مسند مقعدى «احنا مش عاجبينك». ملت بجسدى إلى الأمام لأبتعد عن ذراعه ووجدت نفسى أقول «لا». نظرت إلى ناهد نظرة حانقة لكنها ضحكت. سألتها أن تأتى معى إلى دورة المياه. وقمنا. قالت ناهد حانقة عندما ابتعدنا عنهما «أنت اتجننت أيه التصرف ده». «قلت» أنا مروحش سينما وأقعد جنب واحد معرفوش. وكمان شكله غبى بالشعر الطويل ده ومقرف». قالت «لما قلت لهانى إنك ستحضرى قال إنه سيحضر صديق له». زاد ضيقى منها. وقلت لها إننى سأذهب قالت إنها ستغضب. لم أهتم وأسرعت إلى الباب. كنت أختلس النظرات إلى الجالسين ولم أجد أحداً يعرفنى.

عيد ميلادى

اقترحت أختى أن نعمل حفلة مقتصرة علينا. وخطيبها الذى جاء فى اجازة من الجبهة. قالت أمى مادمنا سنعمل حفلة ستعزم بعض قريباتها لأنهن دائما يعزموننا فى أعياد ميلاد أبنائهن. وقال «عادل» إنه سيحضر صديقته. زميلته. فرصة أن يعرفها علينا. شعرت بغيظ منهم. ماذا عنى أنا صاحبة الحفلة. قلت غاضبة: سأعزم كل صديقاتى. قال أبى إن أدعو صديقاتى المقربات فقط. وأن تعزم أمى أختها وبناتها فقط وأن يأتى عادل بصديقته وأختى بخطيبها فالمفروض فى حفلة عيد الميلاد أن تكون للمقربين. وأن يكون المقربون قلة. حتى نستطيع أن نحضر حلوى محترمة. وكميات قليلة أحسن من أن نحضر حلوى رخيصة وكميات كثيرة.. دعوت أربعاً من صديقاتى منهن: «ناهد» و«منال». وسألت «ناهد» أن تحضر أخاها لأنى دعوت «سعيد أخو منال» حتى لا يتساءل أحد «لماذا أخو منال؟».

ارتديت بدلة لونها أخضر. هدية أمى وأختى من قماش الديولين الذى يصلح أيضا لأيام الشتاء.. وقفت أمام المرآة أتأمل شكلى. لاحظت أننى ازددت طولا. واصبحت رشيقة جداً. جاء كل المدعوين وكنت متوترة خائفة ألا يحضر «سعيد».. لن يكون للحفلة أى معنى. وعندما جاء مع أخته لم أهتم بأى أحد بعد ذلك. كنت أسير وأتحدث واضحك له فقط. وانتهز «سعيد» فرصة وجودى وحدى فى حجرة المائدة وجاء مسرعاً خلفى. قدم لى سلسلة ذهبية رفيعة وبها قلب صغير جداً. وضعها حول عنقى وهو يقول كل سنة وأنت طيبة. وكأنى لم أسمع هذه الجملة إلا منه وحده. خرجنا من الحجرة قبل أن يلاحظ أحد انفرادنا. وعندما وقفنا حول المائدة. اضاءوا الشموع. وأطفأوا النور. همست «ناهد» فى أذنى.. أن أدعو شيئا قبل أن أطفئ الشموع وإذا أطفأتها مرة واحدة ستتحقق أمنيتى. دعوت أن يحبنى «سعيد».

وأطفأت خمس عشرة شمعة دفعة واحدة.

حكايات في التليفون

رفعت سماعة التليفون لأطلب صديقتي «منال» متمنية أن يرد علي «سعيد». مشتاقة لأسمع صوته ويقول لي أي شيء. وجدت صوتين لشابين يتحدثان. وضعت السماعة. رفعتها بعد لحظات وجدت صوتهما مازال. تركت السماعة علي أذني لأتسلي. أو لأعرف في أي شيء يتحدث الشابان. عرفت أنهما في مدرسة أجنبية في السنة الثالثة الثانوية العامة. وأنهما يشتركان في ناد كبير واحد منهما كان في الإجازة في أوروبا وندم لأنه لم يشتر «حذاء كاوتش للعب» مع أن ثمنه كان معه. ثم سأل أحدهما الآخر عن «الجو». وفهمت أن «الجو» هو فتاة. ثم انزعجت لحوار دار بينهما ووضعت يدي علي السماعة حتي لا يسمعان انفعالي.

– بدور علي جو جديد. أظن سنة كفاية.

– وأنا يابني منشن علي حـتـة بنت. الدور ده من النادي. مش حتعرفها لأنهم مشتركين جديد. اللي مضايقني أنها دايما مع أمها.

– عرفتها. دول منشنين عليها كتير.

– تراهن أني أنا اللي حفوز بيها.

– إزاي.

– اصلي أنا لي طريقة خاصة مع الأمهات أخليها لا تثق في أحد غيري وبالطريقة دي أقدر أكلم البنت ونتقابل بعيدا عن الأم.

ضحكا. قال الصوت الثاني.

– أنت مصيبة وعايزني أراهنك ليه.

– فاكر لما راهنتكم علي سوسن وكسبت خمسة جنيه.

– إنما ياحلو ما أنت أخدت بيهم قلم علي وشك.

– أنا مش عارف هي وافقت أنها تيجي معاك الشقة.

– قلت لهاحعرفها بخالتي لأنها ست متحررة وتعيش وحدها. وطبعا لما فوجئت بيكم ضربتني وجريت. أقول لك باى باى دلوقت علشان أنزل أشتري «جزمة كاوتش».

وضعت السماعة. وذهبت رغبتي في طلب «منال» وذهب شوقي لسماع صوت «سعيد» وشعرت باكتئاب.

شهادة للفتاة أنها كبرت

ذهبت إلي «منال» صديقتي بحجة أنني أريد أن أقرأ معها شيئا في اللغة الإنجليزية والحقيقة إني كنت أريد أن أري «سعيد». كان جادا أمام اخته وعندما ناداها لتتحدث في التليفون جاء إلي وقال لي إن أقابله يوم الجمعة صباحا. في كافتيريا في وسط البلد وقال إنه يريد أن يقول لي كلاما كثيرا. فرحت واضطربت وبقيت أحلم ماذا سيقول لي إلي أن جاء يوم لقائنا. في صباح الجمعة ارتديت البدلة الجديدة والسلسلة التي أهداها لي بالقلب الصغير. قلت لأختي إنني سأقابل «سعيد» وحدي. صمتت قليلا ونظرت إلي هذه النظرة الغير موافقة والموافقة معا. ثم قالت لي ألا أتأخر عن ساعتين. وذهبت إليه. قال إنه يحبني. وسألته أن يقولها مرة ثانية فقالها. أغمضت عيني قليلا. ربت علي وجهي وابتسم وضعت يدي علي أذني. سألني ماذا حدث لي. قلت لا أريد أن

أسمع أي شيء آخر اليوم. قال لابد أن أسمع بقية كلامه فأنصت إليه. قال إنه يريد أن يقابلني دائما. ولا يريد أن تعرف أخته أننا نتقابل أو أنه يحبني أو أي شيء، إنه لا يريد أن يعرف أحد آخر أيضاً خصوصا صديقاتنا أنا وأخته. لم استطع أن أقول له إن أختي تعلم أين أنا الآن خفت أن يغضب. قال لي إن أطلبه في التليفون في وقت معين من اليوم. الساعة السابعة مساء وسيكون بجوار التليفون في هذا الوقت كل يوم. إذا أمكنني محادثته. وإذا كان يوجد أحد بجانبي أو جاء فجأة أي أحد أحدثه علي أنه صديقة لي وفي هذه الحالة سيخفض صوته. نظرت إليه ببلاهة. وعندما عدت إلي منزلنا لم أكن فرحة. فهل أول مرة اسمع من شاب أعجب به وأحبه أنه يحبني ولا أقول لأحد. أي واحدة من صديقاتي عندما يقول لها حبيبها إنه يحبها تقولها بصوت مرتفع وهى تقفز من الفرحة. الاعتراف بالحب شهادة للفتاة أنها كبرت واصبحت مؤهلة للحياة. لماذا يريدني «سعيد» أن أخفي شهادتي. كنت غاضبة منه ومع ذلك كنت في داخلي أشعر بفرحة لأول اعتراف حب لي.

اللمسة..!

دعتنا «منال» مجموعة من بنات الفصل – إلي تناول الإفطار في بيتها في اليوم قبل الأخير من رمضان. جلست أمها في صدر المائدة. وأباها تصدر المائدة من الجهة المقابلة لها وكان مسرورا بنا. بالزهرات اللاتي يحطن المائدة كما سمانا. وجلس «سعيد» بجانب الأم. ولا أدري هل تعمدت منال أن تجلسني بجانب أخيها أم هي الصدفة. المهم أني جلست بجواره. ولأنه كان الشاب الوحيد فكانت الفتيات ينظرن إليه ويحاولن لفت نظره. وكنت ابتسم في داخلي وأنا أري محاولات لفت نظره. وإن كنت اغتظت. لم استطع أن آكل. وكانت يدي اليسري علي المائدة وأنا أشرب الشوربة باليمني وعندما أخذ «سعيد» سكينته لمست يده. لفتت نظري «منال» أكثر من مرة أنني لا آكل. بعد الأكل جلسنا في حجرة صالونهم الكبيرة وأدارت «منال» اسطوانات راقصة. هذه

الرقصات التي يمكن أن يرقصها كل واحد وحده. وجدت بي طاقة غريبة فقمت ورقصت. أهز رأسي ويخفي شعري وجهي كنت أرقص بكل جسدي وكنت أتمني أن يأتي «سعيد» ويراني لكنه اختفي في حجرته. الساعة العاشرة قمنا. قالت منال إنها ستوصلنا بسيارة أبيها.

اختفت لحظة وعاد معها «سعيد» وهو يقول ضاحكا. أن السائق ذهب وهو سيقوم بمهمته من أجل عيوننا. جاءت معنا «منال» فتحت باب السيارة الأمامي وجذبتني من يدي دفعتني قبلها ودخلت وجلست بجانبي. والفتيات الثلاث جلسن في المقعد الخلفي. ووجدت نفسي مرة أخري بجانب «سعيد» وفرحت. نظرت إلي يده علي عجلة القيادة وأردت أن أمسكها. ألمسها. نظر إلي بجانب عينيه ونحن واقفين فى إشارة مرور. وتحركت شفتاي تقولان بلا صوت. أحبك. وضم شفتيه لترسلا لي قبلة.

الحياة أصبحت صعبة

كانت أمى تحرص دائماً على أن تحضر لنا ملابس جديدة فى العيد وتقول إن العيد بهجة للأطفال. ولما كبرنا بدأت هذه الأشياء الجديدة تأتى فقط مع دخول المدارس وفصل الشتاء والصيف. وقد اقنعتنا أمى أننا كبرنا منذ سنتين. أما أبى فقد شرح لنا غلاء الأسعار وضرورة تعليمنا. هذا العيد أصريت على أن يكون لى فستان جديد وبكيت لأن معظم فساتينى هى فى الأصل كانت لأختى. فملابس الشتاء معظمها أن لم تكن كلها كانت لأختى ثم أصبحت لى. تأثر أبى لبكائى وتحدث مع أختى. فأخذتنى إلى محل كبير واشترت لى فستانا جاهزا فرحت به لأنه لم يكن لأحد قبلى وسأرتديه يوم أقابل «سعيد» لابد أننا سنتقابل فى أجازة العيد.

نزلنا ثالث أيام العـيـد. والداى و«عــادل» وأنا لنذهب إلى زيارات عـائليـة. وقـفنا نبـحث عن سيـارة أجـرة. ذهبنا إلى الأوتوبيس كـانت المواصلات مزدحمة حتى أن الناس أو الشباب يجلسون فوق السيارات العامة ويخرجون من نوافذها. قالت أمى الناس كترت والحياة اصبحت صـعبـة فى كل شىء. قـال «عادل» لأنه لا يوجد نظام فى شىء. نظر أبى إلى الناس المـزدحـمـة على النواصى وفى الأوتوبيـسـات نظرة فيلسوف يائس وقال. ومن الذى يستطيع أن ينظم كل هؤلاء الناس. قال «عادل» متحمسا. إن الإنسان إذا دفع غرامه لخطئه لن يعود إليه وكلما زادت غرامة المخالفات للنظام كلما تعود الناس على احترامه. قالت أمى أنه ليس وقت المناقشة الفلسفية لأننا نقف من ساعة لا نستطيع ركوب أى شىء. انتبهنا إلى سيارة أجرة تهدئ بجوار عمارة فجرينا، عادل وأنا خلفها. فتحنا أبوابها للنازلين، تذكرت «سعيد» لم يحدثنى ولم نتقابل فى العيد. وفكرت فى كلمات أمى. الحياة أصبحت صعبة فى كل شىء!

العيون المراقبة

اعتذر «سعيد» لأنه لم يستطع مكالمتى لانشغاله بالعائلة والمذاكرة وأنبنى لأنى لم أتصل به من زمن. سألنى أن أقابله فى كافيتريا فى وسط البلد صباح الجمعة. هذا حدث عندما طلبته يوم الخميس فى موعدنا المحدد.. السابعة. حدثت «ناهد» صديقتى وقلت لها ألا تطلبنى لأنى مفروض أن أكون عندها وذهبت لمقابلة «سعيد» اشتريت له نتيجة صغيرة معدنية للمكتب. قال أول أن جلست أمامه «وحشتينى جدا».. واتفق أن يطلبنى يوما وأنا يوما فى الساعة السابعة كان «سعيد» يتحدث وأنا انظر إليه وفجأة التقت عيناى بنظرات «نادية» زميلتى فى الفصل وكانت فى عزومة «منال» وضمن الفتيات اللاتى حاولن لفت نظر «سعيد» أردت أن أنزل تحت المنضدة أو المقعد واختفى. سألنى «سعيد» ماذا بى قلت له على النظرات المراقبة.. وسارت «نادية» بخبث شديد

بجوارنا كأنها تبحث عن أحد لتتأكد من الشخص الذى أجلس معه. لم تسلم علينا وعادت إلى مكانها. صمت «سعيد» فترة. قلت له لابد أن أقول لأخته عن علاقتنا لأن «نادية» ستقول لها. قال إن «نادية» أيضا تجلس مع شاب، فما الضرر. قلت له «إذا كنت شخصا آخر غير أخو صديقتى ما كان يهمنى». قال لينهى الموضوع «أنا حأقول لها. والمرة الجاية نروح مكان بعيد عن وسط البلد. الجمعة الجاية نروح الهرم نتقابل عند أوتوبيس الأهرام».

لكن بدأت أقلق وأنا أجلس معه. خفت أن ترانى عيون أخرى، فى اليوم التالى، ابتسمت لى «نادية» فى الفصل ابتسامة خبيثة وقالت «تدفعى كام وما أتكلمش». ابتسمت بغيظ ولم أفهم هل حقيقة ما تقوله أم مجرد هزار وأخذت منى قلما من الحبر الجاف فى حصة الجغرافيا ولم ترجعه لى. لم يكن قلما غالى الثمن فخجلت أن أطلبه.

الكذب أحيانًا

قالت أمى «وقعتك سوده كنت فين؟» .

قلت بلا إضطراب «مع ناهد» ، قالت «ابن عمك شافك فى الهرم وقال لأبوه وأبوه كلم أبوك . وأبوك راح له . كنت مع مين قلت «مع ناهد» .

قالت «شافك مع واحد .. كنتم راكبين حمير وقعتك سودة» . دخلت حجرتى . كنت مازلت منتشية فى لقائى مع «سعيد» وذهابنا إلى الأهرام . حقيقة ركبنا حمير . وكانت هناك مجموعة من الفتيات والشبان عرف سعيد أحدهم وعزمونا على تناول الطعام . غنينا وجرينا . وكان يوما مدهشا . لكنى لم ألاحظ ابن عمى هذا . شعرت بضيق حتى كدت أفقد طعم حلاوة اليوم . هل كلما أقابل «سعيد» أجد عفريتا بعينين يراقبنى ويهدد سعادتى!

غيرت ملابسى وجلست أتفرج على التليفزيون، قال عادل «مضيت يوم كويس» قال هشام «مع مين يا جن».

ابتسمت أختى ولم تعلق. وكنت صامتة أبتسم لكن كنت أعد الكلام الذى سأقوله أمام أبى. وعندما جاء لم يبتسم لنا كعادته مرحبا.

قالت أمى «أخوك قال لك إيه». نظر إلى أبى نظرة مؤنبة. استجمعت شجاعتى وقلت «أنا كنت عند ناهد، قال لنا أخوها إنهم رايحين مجموعة للهرم واصرت ناهد أن نروح معهم». قالت أمى. «طيب اتكلمى فى التليفون. قولى لنا». قلت «كنا مستعجلين ونسيت». قال أبى «تانى مرة متعمليش كده. لازم تقولى لنا إنت رايحة فين. أنا اضطريت إنى أقول لأخويا إنى أعرف إنك فى الهرم مع صحباتك وإخوتهم. أنت عارفة إنى دايما فخور بيكم محبش أى كلمة جارحة عليكم. فاهمة».

شعرت بخوف وأنا أهز رأسى موافقة. وفكرت أية كلمة جارحة هذه التى قيلت. وتألمت لأنى سببت لأبى هذا الموقف. هو أيضا اضطر أن يكذب وقررت ألا أقابل «سعيد».. فقط لفترة.

لماذا لا يخطبني

بالمصادفة والحظ السعيد وجدت أختى شقة. وفى الفصل جاءت زميلتنا «سهير» يوما وفى أصبع يدها اليمنى دبلة ذهبية. قالت لنا إن حبيبها خطبها وأصبحت تقابله علانية ويزورهم. فكرت لماذا لا يخطبنى «سعيد»! انتهزت فرصة خلو البيت وطلبته فى موعدنا وكنت منذ رحلتنا للهرم لم أحدثه خوفا من شك أى أحد.

جاءنى صوته متلهفا. أين كنت.. حكيت له على ابن عمى وكيف عمل «زيطة» فى العائلة يوم رآنا. ثم سألته: لماذا لا يخطبنى حتى لا تهددنا عيون مراقبة. صمت لحظة ثم قال إن أمامنا سنين حتى ننتهى من دراستنا. قلت له إن أختى ظلت مخطوبة سنين لحبيبها. قال إنهاكانت فى السنين الأخيرة من دراستها وخطيبها كان يعمل فعلاً. قلت له إنه غير متأكد من حبه لى. قال نافيا إنه متأكد جداً وسنتحدث

فى هذا الأمـر عندمـا نـتـقـابل. جـسـمت خـوفى من مـقـابلتـه فـقـال إننا سنذهب إلى مكان لن يرانا فيه أحد. واتفقنا على لقاء يوم الجمعة بعد الظهر. وضعت السماعة وتعجبت من نفسى ومع ذلك جلست أحلم أنه سيجلس فى حـجـرتى التى ستكون لى وحدى.. وسأحدثه فى التليفون ويحدثنى دون أن نخفى مع من نتحدث. ولن أكذب إذا قابلته. وحلمت حتى بالكلمات التى سأقولها لأبى ليقتنع بخطوبتنا. أمى لن تعترض لأنهـا مـقـتنعة بـخطوبة البنت وهى صـغيرة. لكنى لست صـغيرة الآن. عمرى خمسة عشر عاما. جاءت أختى وأنا مازلت أحلم قلت لها إننى سـألت «سعيد» أن يخطبنى. جلست بجـانبى وأمـسكت كـتـفـى وهزتنى لتـفـيـقنى. ورجـتنى أن أؤجل التـفكيـر فى أى نوع من الارتبـاط إلى أن أنتهى من دراستى الجامعية. دهشت من توسلاتها. ولم أفهم مشاعرها.

داخل شقة خاصة!

وجدت «سعيد» ينتظرني في سيارتهم على ناصية شارعنا في الموعد الذي حددناه للقائنا. نظرت حولي. وصعدت السيارة مسرعة. نزلت في المقعد حتى لا أظهر وضحك. سألته أين سنذهب.

قال: مفاجأة. ووقفت السيارة أمام منزل يكاد يكون معزولاً. اضطربت وأنا أسأله. أين نحن؟

نزل من السيارة وفتح لي الباب. أخذني من يدي دون كلمة. اتجهنا إلى شقة في الدور الأول. فتحها بمفتاح معه. وجذبني من يدي لأدخل. أغلق الباب خلفنا وهو يقول: هنا لن يرانا أحد. خفت. يوم بدأت دورتي الشهرية شرحت لي أختي كل شيء من كتاب. لم تخيفني. لكنهاحذرتني. ذهبت فرحة اللقاء طبعاً لست أول من يحضرها هنا وتضايقت.

سألنى مالك. سألته شقة من هذه؟

قال مبتسما. المهم أن أحدا لن يرانا. قلت: لنخرج من هنا. اقترب منى فتح الراديو. موسيقى راقصة. سألنى أن أراقصه. رفضت. جذبنى من يدى. قبلنى. لم أشعر إلا بقسوة شفتيه. ضربته على صدره وجريت إلى الباب. ضحك وسألنى كيف سأذهب. وأغتظت. نظرت إليه. ليس هذا «سعيد» الذى أحببته. وبكيت، فأجأته دموعى. فريت على ظهرى. ذهبت إلى الحمام وأغلقت الباب. غسلت دموعى نظرت من النافذة إلى الطريق. لن أهتم وسأنزل وحدى ذهبت إلى الباب. لحقنى.

لم أعد أحبه.

دموعى

فى الصباح كنت مكتئبة وعيناى مورمتان من أثر دموعى. خصوصاً أنى بعد أن عدت من مقابلة «سعيد» التى ضايقتنى بحثت فى حقيبتى عن نوتة مذكراتى الصغيرة فلم أجدها. قلبت درجى الخاص وتحت «مرتبة» سريرى ولم أجدها. إتهمت أمى بأخذها لكنها فى الصباح كانت عادية فى معاملتى. وفى الفصل لاحظت البنات إنى مكتئبة، وقالت «نادية» أمام «منال». «يظهر الجو انقلب» ثم قالت لمنال «واجب عليك تصلحى الجو مع صاحبتك مش هى أقرب صديقة لك». قالت «منال».. «ياريت كنت أعرفه كنت بهدلته علشانها». تأثرت من كلمات «منال» وتعجبت. فوجئت أيضاً. لقد قال لى «سعيد» يوم رأتنا «نادية» معا أنه سيقول لأخته عن حبنا.

هو لا يحبنى حقيقة وليس جاداً معى لذلك طلب منى ألا أخبر أحداً. الآن وبعد حادثة أمس استطيع أن أفهم. قالت «نادية» لمنال.. «إزاى

متعرفيش حبيب صاحبتك؟ أنت تعرفيه كويس جدا». وضحكت البنات صديقات «نادية». زاد غيظي واستجمعت شجاعتي وقلت كاذبة «أنا كنت في البلد يوم وقابلت أخوكي يا منال صدفة، فعزمني على فنجان شاي. ونسيت أقول لك. شافتنا نادية. وكانت مع الجو بتاعها فافتكرت أن كل اثنين مع بعض لازم يبقوا بيحبوا بعض».

قالت منال مبتسمة «وفيها إيه لما أخويا يعزم أي واحدة فيكم على الشاي؟».

تضايقت منها لهذا التعميم وفرحت به أيضاً لأنه يبعد عن الشبهة.

قررت نسيانه. وأنا عائدة إلى منزلنا اشتريت نوتة جديدة صغيرة لمذكراتي وقررت أيضا أن أنسى هذه التي ضاعت. وإذا كانت مع أحد من إخوتي أو والدي سأنكر تماما أنها تخصني. تنبهت لشيء إنني أصبحت أكذب منذ أحببت «سعيد». هو دفعني إلى هذا الكذب منذ سألني ألا أخبر أحداً عن حبنا.

لن أكتب مذكراتى

امتنعت عن طلب «سعيد» وعن الرد على أى رنين للتليفون. وفى وقت متأخر رديت على التليفون لأنه لم يوجد أحد بجواره وكان «سعيد» سألنى لماذا لا أحدثه. قلت له إننى لن أقابله ولننسى كل شىء كان بيننا. قال إنه يريد أن يقابلنى ليعطينى شيئا يخصنى مادمنا لن نلتقى. قلت له إنه لم يحبنى أبداً ولماذا لم يخبر أخته؟ قال إنه فعلا لم يقل لها لأن هذا من خصوصياته ولا يحب أن يعرف حد. بعد تردد وافقت أن اقابله وأخذت معى السلسلة الذهبية التى أهداها لى لأعيدها له مادام يريد أن يعيد لى هديتى. جلسنا فى كازينو على النيل.. اعطيته السلسلة. وسألته أن يعطينى هديتى لكنى فوجئت به يخرج من جيبه نوتة مذكراتى التى فقدتها شهقت وأنا أسألة أين وجدها. قال إننى عندما كنت معه فى آخر لقاء وذهبت لأغسل وجهى أخذت منديلى

وتركت حقيبتى مفتوحة. نظر فيها ووجد هذه النوتة. حاولت خطفها. أبعدها عنى وهو يقول «تتهمينى أنى أعرف بنات وستات وأنت بتعرفى شبان كثيرة قرأت عنهم فى النوتة». أخذت النوتة. هو ليس جاداً معى حتى أدافع عن نفسى. قمت دون أن أنظر إليه. وسرت لمسافة طويل على كورنيش النيل أمامى سنتان وأذهب إلى مجتمع كبير للاختلاط. لن أكذب عندما أخرج مع زملائى. ولن أحب إلا بعد أن اختار الشخص الذى يكون تفكيره مثل تفكيرى متحرر. «سعيد» لم أعرفه قبل أن أحبه. احببته ثم بدأت أعرفه. لن أكتب مذكراتى حتى لا تقع فى يد أحد يفهمها فهما خاطئاً.

* * *

أغلقت نوتة المذكرات، بعد أن عادت لسنين صباها لحظات، وتعجبت إنها لم تمزقها.. هل لأنها لم تنجب؟! فلن تشعر بخوف أن يقرأها الولد أو البنت؟! هزت رأسها.. لا.. إذا كانت انجبت كان يمكن أن تقرأها إبنتها أو أبنها فهى تبين لهما زمن غير زمانهما، وليس بالمذكرات ما يشينها.. فيها حيرة لبنت تبحث عن نفسها وعواطفها.. فيها أسرة متماسكة محبة. فيها أب يعلم بناته وأبنائه أن الحرية مسئولية فلم يخطئوا فى تصرفاتهم.. ترحمت على والديها اللذين رحلا فى سنين متقاربة بعد زواجها.

أين تلك الأيام الشابة البريئة مما يحدث فى المجتمع الآن؟!

تعجبت إنها كتبت كل مذكرة تحت عنوان. ابتسمت.. كان تفكيرها أدبياً لذلك اتجهت إلى الدراسة الأدبية والنفسية التى عبرت عنها فى تلك المذكرات.

فكرت فى أسماء صديقاتها والأولاد الذين كتبت عنهم.. غريبة. لقد اختفوا تماماً من حياتها عندما التحقت بالجامعة.

فى أول دراساتها الجامعية علمت أن ناهد التحقت بمعهد تجارى.. ومنال بكلية الألسن.. على ألتحق مع سعيد بكلية الطب. كانت أماكن دراستهم فى جامعة غير جامعتها، وانشغل كل منهم بطريق حياته كما انشغلت هى بطريقها. أما مدرس علم النفس علاء، والضابط سمير فلم تعرف عنهما شيئاً.. غريبة أنها لم تقابل أى منهم خلال السنين الطويلة.. كأن الحياة ابتلعتهم.

وهى سارحة فى أفكارها عاد زوجها من الخارج مبكراً قليلاً عن موعد حضوره. التفتت إليه بشىء من الدهشة وربما الاضطراب فوضعت النوتة الحمراء فى الظرف القديم.

سألها زوجها ما هذا الذى تحاول إخفائه؟

قالت إنها نوتة قديمة وجدتها فى مكتبها. سألها ممازحا ولماذا تريد إخفائها؟ قالت ضاحكة: إنها مذكرات عبيطة كتبتها من ثلاثين سنة، أبدى رغبة فى قراءة ما كتبته زوجته الحبيبة فى عمر المراهقة.

فتحت النوتة على السطر الأخير من المذكرات وقرأته.. ضحك قائلا: «وهل بعد سنين طويلة من زواجنا، وتفاهمنا وحبنا ونضجنا يمكن أن أفهم ما كتبتيه من ثلاثين عاماً خطأ؟»!

لقد تزوجا عن حب جميل، وصراحة غير جارحة فى المعاملة، أعطته نوتة المذكرات وذهبت إلى المطبخ لتعد الطعام، وكانت من وقت لآخر تسمع ضحكاته.. فتبتسم.

الفهرس

(١) حكايات بنات من زمن فات

(٢) مذكرات بنت من زمن فات!

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٢٤٦ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6840 - 8